جامعة الأزهـــــر
كلية أصول الدين ــ القاهرة
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

بحث علمي مقدم إلى الحولية بالكلية

تحت عنوان :

[الإسلام والتواصل الحضاري]

تأليف
الدكتور/ محمد عبد العزيز محمد عوض
الأستاذ المساعد بقسم الدعوة

عام ١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤ــ ٢٠٠٥م

والله الموفق ،،

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين ، ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين. أوسع الناس صدرا ، وأصدقهم لسانا ، وأفصحهم خطابا . الذي آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته وسار على هديه إلى يوم الدين ....

أما بعد :

فلا يزال الإسلام في عصرنا الحاضر يواجه العديد من الحملات الشرسة ، والهجمات المسعورة ، والحملات المغرضة من جانب أعدائه الحاقدين والمتعصبين بهدف محاولة التشويه والتشويش المتعمد لصورته الحضارية ، وهذا ما تتعرض له الآن أمتنا الإسلامية في العصر الحديث . إذ تتقاذفها الأمواج من كل الاتجاهات، في تشويه صورتها والإساءة إلى ثوابتها الأمر الذي جعل الإعلام الدولي يلصق بالإسلام تهم الإرهاب والعنف والدموية والصراع ، وفي هذا الجو المشحون بالمفاهيم المغلوطة والأفكار الخاطئة والاتهامات الظالمة عن الإسلام والمسلمين لم يكن مقبولا ، ولا معقولا أن نقف جامدين مذهولين من هول الصدمة ، عاجزين عن فعل أي شئ لرد هذه الهجمات الشرسة والمتكررة عن الإسلام وتاريخه وحضارته. بل يتحتم علينا أن نكشف للقاصي والداني في داخل العالم الإسلامي وخارجه عن قيم الإسلام الحقة ، وتعاليمه السمحة ، وحضارته الخالدة التي استظلت البشرية بظلها ، ونعمت بأمنها وأمانها قرونا عديدة من عمر الزمن .

وغير خاف على أحد أن الحضارة الإسلامية التي انطلقت من تعاليم الإسلام وقيمه ومبادئه الربانية ، والتي قدمت عطاء ثريا للإنسانية — تتعرض اليوم لحملات ضارية من التزييف والجحود ونكران الجميل ، من جانب بعض المتعصبين من مفكري الغرب — مما قد يعطي للأجيال المقبلة انطباعا زائفا يلصق بهذه الحضارة كل

صفات العدوان والتدمير ، ويجردها من كل القيم الإنسانية الرفيعة التي أرستها منذ أربعة عشر قرنا من الزمان .

هذا مع أن الحضارة الإسلامية التي يحاول الغرب المتعصب الآن الإنتقاص من شأنها ــ كانت ولا تزال تسعى لتحقيق كل القيم والمبادئ الإنسانية النبيلة في دنيا الناس التزاما بما قرره القرآن في قوله تعالى { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا } الآية [١] .

ومن هنا كان من أولويات اهتمام تلك الحضارة : التعرف على الحضارات الأخرى التي عرفها العالم عند ظهور الإسلام وفي مقدمتها : الحضارات اليونانية والفارسية والهندية وغيرها من الحضارات ، والاستفادة الواعية مما لديها من خبرات وتجارب .

وقد أدى هذا الالتقاء مع كل هذه الحضارات بالإضافة إلى الرصيد الديني لدى المسلمين إلى تفاعل وتواصل مثمر كان له أثره في البناء الحضاري الذي تبنته الحضارة الإسلامية. وهذا كله يبين لنا أن الحضارة الإسلامية كانت منذ البداية حضارة إيجابية منفتحة على كل الحضارات دون تمييز بين أي منها بسبب الجنس أو اللون أو الدين ، وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد استفادت من الحضارات السابقة فإنها جادت بعد ذلك بعطاءها الحضاري الغزير على كل الأمم دون أن تحجب منه شيئا ــ إيمانا منها بأن التراث الإنساني أخذ وعطاء ، وأنه لا توجد أمة عريقة في التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث [٢].

وعلى الرغم من وضوح تلك الحقائق الثابتة عن حضارة الإسلام وتواصلها الإيجابي إلا أننا وجدنا أحد مفكري الغرب المتعصبين قد تبنى شبهة ظالمة وعنصرية جائرة فزعم أن الصراع هو القانون الذي يجب أن تسير في ظله الحضارات ، ولا سيما الصراع بين حضارة الإسلام والحضارة الغربية .

---

(١) سورة الحجرات / ١٣ .

(٢) انظر التسامح في الحضارة الإسلامية ص ٥ ـ ١١ ـ د/ محمود زقزوق ـ ضمن سلسلة قضايا إسلامية ـ العدد رقم ١١٠ ـ إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف طبعة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م ـ بتصرف يسير .

وتأكيدا لهذا الاتجاه العنصري أثار " صموئيل هنتنجتون" بمقاله عن صدام أو صراع الحضارات عام ١٩٩٣م ــ ضجة كبرى في الشرق والغرب على السواء ومن ثم كان من الضروري أن ينشغل كثير من المفكرين والباحثين في عالمنا الإسلامي بهذه القضية المثارة ، والتي تعد في ــ من وجهة نظري ــ من أخطر التحديثات المعاصرة الملحة ، والتي تفرض نفسها على عقول الدارسين ، ولذا فإذا كنا نحن المسلمين أصحاب دعوة ورسالة عالمية ، وحضارة ربانية خالدة . فإنه من الواجب علينا حمل أمانة الدعوة إلى الله ، وتعريف العالم والإنسانية كلها بالإسلام ومبادئه وقيمه العليا ، ومقاصده السامية ، ومحاولة تصحيح الكثير من التصورات والمفاهيم الخاطئة التي راجت لدى العديد من الأوساط الدولية عن الإسلام والمسلمين.

ونظرا لخطورة هذا التحدي فإن الأمر يحتاج منا نحن المسلمين إلى وقفة علمية منصفة نواجه بها هذه الحملة الظالمة بأسلوب علمي يتوخى عرض الصورة الحقيقية للإسلام لنزيل من خلالها ما علق ببعض الأذهان زورا وبهتانا من أحكام مسبقة ، ومفاهيم مغلوطة ، وأفكار خاطئة .

وفي الصفحات التالية سأقوم بعون الله وتوفيقه بإلقاء نظرة موضوعية حول شبهة صراع الحضارات التي يتسابق الغرب الآن على الترويج لها في معظم وسائل الإعلام ، ولهذا فقد استخرت الله تعالى واستعنت به في الكتابة عن هذا الموضوع تحت عنوان [الإسلام والتواصل الحضاري] وهو بحث علمي متواضع يلقي الضوء على الزعم القائل " بصراع الحضارات " مبينا الصورة الصحيحة للحضارة الإسلامية ، ومفندا دعوى الصدام بين الحضارات، ومراعيا في معالجته المنهج العلمي الدقيق الذي يرتكز أساسا على كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومقتديا بالأسلوب القويم ، والمنهج الدعوي الذي بينه القرآن في دعوة أهل الكتاب متمثلا في قوله تعالى : { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة

والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن } [١] وكذلك قوله تعالى: { ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن } [٢]

وهكذا يضع هذا البحث الحقيقة أمام العقل الإنساني ليعمل فكره فيها بحيدة وإنصاف . فالعاقل من يرى الحق حقا فيتبعه ، ويرى الباطل باطلا فيتجنبه ، وعلى الله قصد السبيل .

* * *

دكتور

محمد عبد العزيز محمد عوض

الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

بكلية أصول الدين بالقاهرة - جامعة الأزهر

(١) سورة النحل / ١٢٥ .
(٢) سورة العنكبوت / ٤٦ .

التمهيد

الحضارة بين اللغة والاصطلاح

يجدر بي بادئ ذي بدء أن أتناول تحديد بعض المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بموضوع هذا البحث حتى نستطيع من خلال تحديدها وبيانها فهم واستيعاب كل ما يندرج تحتها من موضوعات تتعلق بجوهر موضوعي المزمع دراسته ، وذلك على النحو التالي :

أولا : معنى الحضارة في اللغة : -

إن المتتبع لكلمة الحضارة (بكسر الحاء وفتحها) عند اللغويين يجد أنها تطلق ويراد بها عكس البداوة وهي الإقامة في الحضر أي : المدن " [١] .

وجاء في المعجم الوجيز [٢] : " والحضارة : تعنى الإقامة في الحضر ، وهي ضد البداوة وتعنى كذلك : مظاهر الرقي العلمي والفني والاجتماعي في الحضر ، والحاضرة : خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف والعاصمة ، وحاضرة الشئ: أي : القريبة منه، وفي القرآن الكريم : { واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ... } [٣] وهذه المعاني اللغوية للحضارة تدلنا على أنها تعنى أسلوبا مختلفا في التعامل مع الناس والأشياء وأنها نقلة فكرية أيضا نظرا لما بين مجتمع البداوة ومجتمع الحضر من فروق .

- ومن كل ذلك يتضح أن مفهوم الحضارة في اللغة مرتبط بمفهوم التقدم المادي والمعنوي للإنسان والأشياء على السواء ، فالحضارة إذن حسب هذا المدلول اللغوي هي نقلة تقدمية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى : في الفكر والسلوك وأسلوب التعامل مع الناس .

(١) انظر لسان العرب ج١٩٦/٤ لابن منظور - باختصار ، المفردات ص ١٧٥ للأصفهاني .
(٢) المعجم الوجيز ص ١٥٧ - إصدار مجمع للغة العربية طبعة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .
(٣) سورة الأعراف / ١٦٣ .

ثانيا : الحضارة في الاصطلاح :

أ ـ الحضارة في الاصطلاح العام : ـ

١ـ تعريف يركز على الجانب الصناعي الترفي فحسب كما صرح به العلامة ابن خلدون في مقدمته بقوله :

" إن الحضارة هي التفنن في الترف واستجادة أحواله ، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو الفرش أو الأواني ، وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها"[١] .

٢ـ تعريف يركز على الجانب الثقافي والخلقي كما ذكره أحد الباحثين بقوله :

" إن الحضارة هي ما تعطيه البشرية من تصورات ومفاهيم ومبادئ وقيم تصلح لقيادة البشرية ، وتسمح لها بالنمو والترقي الحقيقيين : النمو والترقي للعنصر الإنساني والقيم الإنسانية والحياة الإنسانية " [٢] ا.هـ

٣ـ تعريف يركز على معظم الجوانب التي تقوم عليها الحضارة كما صرح بذلك المؤرخ الغربي الشهير " ول ديورانت " بقوله : " الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة في نظره من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون ، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق ، لأنه إذا أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء " [٣] ثم يستطرد صاحب قصة الحضارة قائلا :

" وليست تتوقف المدنية على جنس دون جنس . فقد تظهر في هذه القارة أو تلك وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرة أو ذاك .

---

(١) المقدمة ـ لابن خلدون ص ٣٣٤ وما بعدها ـ طبعة دار الشعب .

(٢) المستقبل لهذا الدين ص ٥٦ ـ للأستاذ سيد قطب ـ بتصرف .

(٣) قصة الحضارة ج١ / ص ٥ ـ وول ديورانت ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٣م ـ ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ، ومحمد بدران ـ القاهرة .

لأن الظروف الجغرافية والاقتصادية تتعاون في بناء أية حضارة ما ، وتأتي الثقافة لتعمل على صناعة النمط الذي يصاغ عليه ، فلو تهيأت لجنس بشري آخر نفس الظروف المادية لألفيت النتائج نفسها تتولد عنها " [١] .

ب ـ الحضارة في الاصطلاح الإسلامي : ـ

إن الحضارة في الاصطلاح الإسلامي لا تعنى التقدم في الجانب المادي للحياة فحسب وإنما تشمل مع كل ذلك الأمور المعنوية ـ فالحضارة قبل كل ذلك وبعده : التزام أخلاقي ، وهذا يعنى أنها ليست مجرد حضارة إنتاج أو استهلاك ، فهذه لا تستحق أن يطلق عليها لفظ حضارة ، ومن ثم فإنه لا يكفي بناء على ذلك أن يقتنى المرء الحضارة لمجرد الاقتناء دون أن يكون ملتزما أخلاقيا بمنظومة القيم الحضارية والسلوك الحضاري . ولهذا يمكن أن نرى فردا من الأفراد يستخدم كل منتجات الحضارة ، ولكنه لا يسلك سلوكا حضاريا ، ومثل هذا الفرد لا يمكن أن يقال عنه إنه متحضر رغم الأكوام الهائلة التي يحيط بها نفسه من منتجات الحضارة.

والحضارة في التصور الإسلامي " معنى يقصد به كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانبه ونواحيه فكرا وسلوكا، مادة وروحا ، دينا ودنيا ، بل يمكننا القول أن الحضارة في عمومها وإطلاقها هى خلاصة قصة الإنسان في كل ما أنجزه على اختلاف العصور وتقلب الأزمان ، وما صورت به علائقه بالكون وما وراءه وذلك لقوة التلازم وشدة الارتباط بين الأمور المعنوية والمادية في ظل الإسلام . فالاختراعات المادية في نظر الإسلام قبل أن تظهر إلى حيز الوجود كانت أفكارا ونظريات في عقول المخترعين ، كما أن التصورات في عالم المعنويات لا تكون لها قيمة ما لم تملأ الفراغ النفسي والخواء الروحي في الإنسان صانع الحضارة"[٢]

* * *

---

(١) انظر : قصة الحضارة ج١ / ٦ ـ ول ديورانت ـ بتصرف يسير .

(٢) أضواء على الثقافة الإسلامية ص ١٢ ـ ١٤ ـ د/ مصطفى أحمد أبو سمك ـ وراجع الإسلام والحضارة الغربية ص /٨ ـ ٩ ـ د/ محمد حسين ـ بتصرف يسير .

المبحث الأول

التأريخ الإسلامي للحضارات المادية

من الحقائق اليقينية الثابتة أن القرآن الكريم هو المصدر الإلهي الوحيد الذي أعطى للإنسانية كلها التصور الصحيح عن كل الحضارات التي قامت على مدار التاريخ الإنساني ، وقد ضمنه الله تعالى كل المقومات الأساسية لبناء الحضارات . فلقد حدثنا القرآن حديثا مستفيضا عن حضارات قديمة بلغت درجة عالية في الامتياز المادي ولكنها عندما أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمر الله فصارت حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، ثم بقيت معالمها الشاحبة أطلالا تثير الشجن ، وتبعث على العظة والاعتبار والتأسي ، وتنطق بما أصاب أصحابها من بوار ودمار [١] .

١ــ حضارة قوم نوح عليه السلام :

ففي معرض الحديث عن دعوة نوح عليه السلام لقومه : يبين القرآن ما كان عليه قوم نوح من مظاهر التحضر والرقي منذ فجر الإنسانية ، حيث جادلهم نوح عليه السلام وحاول إقناعهم بالمنطق والعقل والتفكير السليم ، ومناقشتهم لإثبات وجود الله تعالى كما قال تعالى : { فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا}[٢] فهل يتصور العقل أن يخاطبهم بهذا الأسلوب وهذا المنطق وهم قوم غفل عن هذه الحقائق ، لقد كان لهم حدائق وأنهارا ، وكانوا يعرفون الأموال ويتعاملون بها ، وكانوا لذلك كله على درجة من المدنية والتقدم . فمما لا شك أن قوم نوح كانوا قد نالوا قسطا من الرقي الحضاري ، كذلك فقد برعوا في الفنون حتى لان لهم الصخر فطاوعتهم المواد التي صنعوا منها آلهتهم المزعومة [٣] .

---

(١) انظر قيم حضارية في القرآن الكريم ج١م١٥١ ـ للأستاذ / توفيق محمد سبع ـ الطبعة الثانية ١٩٨٤م ـ دار المنار بالقاهرة ـ بتصرف .
(٢) سورة نوح / ١٠ ـ ١٢ .
(٣) قيم حضارية ص / ١٥٢ ـ توفيق محمد سبع ، وانظر الإله في فكر البشر ووحي السماء ص /٢٨ ـ ٢٩ ـ د/ عبد الغفار محمد عزيز ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦م ـ بتصرف .

٢ــ حضارة قوم هود عليه السلام :

وأما عن الحضارة في عاد قوم هود ــ فلم تكن حضارة عاد بأقل من حضارة قوم نوح عليه السلام ، وإنما كان قوم هود على جانب عظيم أيضا من الحضارة والمدنية .

فعاد برغم قدم عهدها ، وبرغم قربها من آدم عليه السلام بالنسبة لنا وصلت إلى مرحلة حضارية فائقة ، فقد أقاموا البنيان والحصون وبرعوا فيهما إلى حد كبير ، كذلك برعوا في الزرعة والصناعة ، وبلغ بهم التحضر مبلغا حتى شيدوا القصور والفيلات ، وربما ناطحات السحاب . قال تعالى : { ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد } [١] وقال عز من قائل مبينا معالم حضارتهم منذ آلاف السنين : { كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصنع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون } [٢] .

وإذا كنا الآن وكانت كل الدول المتقدمة قد عجزت عن تشييد البناء إلا في أماكن معينة لا يصلح غيرها لموضع الأساس فقد استطاعت عاد أن تعرف بعلمها وتمكنها من هذا العلم أن تعرف طريقة البناء في كل المناطق السهلة والرخوة والصلبة وغيرها ، وأن تعالج من الأرض ما يحتاج إلى علاج عند وضع الأسس والقواعد كما يفهم ذلك كله من قوله تعالى على لسان نبيهم هود عليه السلام : { أتبنون بكل ريع آية تعبثون } [٣] . وهكذا نرى القرآن يعرض من خلال حديثه عن دعوة هود عليه السلام لوحة حية معبرة لحضارة مكتملة زاهية قد استجمعت كل عناصر البناء والعمارة ، وإقامة المصانع ، وإنشاء الحصون وتمهيد الأرض وغرس الحدائق ، وتفجير العيون ، ووفرة المال ، وكثرة الأيدي العاملة من الأولاد .

---

(١) سورة الفجر / ٦ ـ ٨ .
(٢) سورة الشعراء / ١٢٣ ـ ١٣٤ .
(٣) سورة الشعراء / ١٢٨ .

فهي كما نرى حضارة زراعة وعمارة تمدها السماء بأسباب النعمة وتحوطها بكل رعاية [١] .

٣ـ حضارة قوم صالح عليه السلام :

وأما عن حضارة ثمود فقد أشار القرآن الكريم إلى ملامح تلك الحضارة المتميزة هي الأخرى بعناصرها المادية التي تشبه إلى حد بعيد حضارة عاد ، وليس هناك ما يمنع أن تكون هذه الحضارات المتعاقبة منذ فجر التاريخ قد أخذ بعضها من بعض ، وإذا كان وراء آية حضارة رصيدها الفكري المتميز، فإن وراء حضارة ثمود فكرا وثنيا يعبد الحجر ويتنكر لصوت القدر، وأما عن عناصر تلك الحضارة المادية الوثنية فتتجلى في بناء القصور الفخمة ، ونحت البيوت في الجبال كما قال تعالى : { واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا . فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين } [٢].

ومن خلال التأمل في معنى الآية الكريمة يتبين أن حضارة ثمود كانت معنية بالزراعة والعمارة ولم تكن تعني بالإيمان والطهارة الخلقية ، ومن ثم بادت كما باد غيرها من الحضارات المادية التي قامت على الشرك والفساد والطغيان.

وهكذا عرض القرآن الكريم هذه النماذج الحضارية لتكون درسا بليغا لأصحاب الحضارات حتى يستفيدوا منها ، ويتنبهوا إلى العوامل التي تؤدي إلى ازدهار الحضارات واستمرارها ، وإلى الأسباب التي تؤدي إلى انهيارها وسقوطها ، ومن البدهي أن هذه الحضارات كانت إقليمية ازدهرت فترة من الزمن حتى اكتمل دورها ثم توارت لتحل محلها حضارات أخرى لأنها لم تزود من العليم الخبير بما يجعلها مستمرة وعالمية تضئ الحياة أو تصلح لكل الأجيال، ولن نجد الحضارة التي تستمر وتضئ آفاق العالم كله بالهدى والرشاد إلا الحضارة الإسلامية ، وكم من مواكب بشرية أقامت على ظهر الأرض ومكن الله لها فازدهرت وسعد أصحابها حتى إذا أعرضت عن الله أذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا

(١) قيم حضارية ج١/١٥٦ ـ ١٥٧ ، وراجع الإله بين فكر البشر ووحي السماء ص / ٣١ د/ عبد الغفار عزيز ـ رحمه الله ـ.
(٢) سورة الأعراف / ٧٤ .

يصنعون ، وكم من حضارات عمرت الأرض ، وابتكرت أروع الوسائل وملكت أفخم القصور ، ونحتت الصخور ومهدت الطرق ، وفجرت الينابيع ، واستخدمت المصانع ، ولكنها مع ذلك لم تثبت على الإيمان بالله تعالى فكان جزاؤها الضياع والدمار وذهب أصحابها لم يعبأ بهم التاريخ [١] .

* * *

(١) قيم حضارية ج١ /٢٠٩ ـ ٢١٠ ـ مرجع سابق ـ بتصرف ، وانظر أيضا : نحن والحضارة والشهود ص / ٧٢ ـ ٧٤ د/ نعمان عبد الرازق السامرائي الجزء الأول من كتاب الأمة ـ العدد (٨٠) السنة العشرون ـ فبراير سنة ٢٠٠١م ـ إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ـ بدولة قطر .

المبحث الثاني
" خصائص الحضارة الإسلامية"

لكل حضارة من الحضارات الإنسانية عبر التاريخ خصائصها وسماتها التي تميزها عن غيرها ، ذلك لأن حضارة أي أمة من الأمم إنما هي ناتجة ومنبثقة من أفكار عقيدتها أو مذهبها الذي تؤمن بـه ، والذي يمثل وجهة نظرها عن الحياة ، وهذا هو السر فـي اخـتلاف الحضارات وتمايزها [١] .

ومن ثم فإن حضارة الإسـلام تختلـف عـن غيرهـا مـن الحضارات سواء القديمة منهـا كالإغريقيـة والهنديـة أو الحديثـة كالحضارة الشرقية والغربية اختلافا كثيرا . لأن الحضارة الإسلامية ليست مكملة ولا متممة للحضارات القديمة لأنها تقوم علـى أسـاس عقيدة التوحيد وعلى إدراك صلة الإنسان بخالقه عز وجل [٢] ولهذا كله كان للحضارة الإسلامية عدة خصائص ومميزات تتفرد بها عـن غيرها من الحضارات نذكر بعضها على النحو التالي :

١ــ خاصية الإنسانية والعالمية :

فمن خصائص الحضارة الإسلامية أنهـا إنسـانية النزعـة والهدف ، عالمية الأفق والرسالة ، فلا تخص جنسا أو عرقا أو لونا أو طبقة اجتماعية ، وإن كان العرب المسلمون هم قاعدتها وحملتهـا الأوائل ، وهذا ما قرره القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا أو يزيـد حين أعلن وحدة النوع الإنساني في قوله تعالى : { يا أيها الناس إنـا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكـرمكم عند الله أتقاكم ..}[٣] . بل جاءت معظم آيات القرآن المكيـة تؤكـد على أهمية هذه العالمية والوحدة الإنسانية وتحطـيم كـل الفـوارق العنصرية قبل أن يكون للمسلمين أمة أو دولة أو حكومـة ، وبـذلك انتفت عن الإسلام وحضارته كل دعاوي الاستعلاء والعنصرية التي لم تبرأ منها سائر الحضارات بشكل أو بآخر [٤] قال تعالى : { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين } [٥].

---

(١) أثر الحضارة الإسلامية في المجتمعات الإنسانية ص / ٨ ـ د/ عبد القادر سيد عبد الرؤف .

(٢) انظر من روائع حضارتنا ص / ٣٥ ـ د/ مصطفى السباعي الطبعة الأولى ١٩٩٨م ـ دار السلام بالقاهرة .

(٣) سورة الحجرات / ١٣ .

(٤) انظر الإسلام وصراع الحضارات ص / ٢٩ ـ ٣٣ ـ د/ أحمد القديدي ـ من سلسلة كتاب الأمة بوزارة الأوقاف في دولة قطر ـ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م ، وانظر روائع حضارتنا ص ٣٥ ـ د/ مصطفى السباعي .

(٥) سورة الأنبياء / ١٠٧ .

وقال تعالى { وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذير } [١].

إن الحضارة الإسلامية هي حضارة للناس جميعـا فهـي لا تعرف حدودا زمانية أو مكانية أو عرقية بل هي للإنسان أيـا كـان أصله وأينما كان موطنه ، ولذلك لم تخل من جهود غير المسلمين في بنائها ، ولم تنكر عليهم حقهم وحظهم فيهـا . فنبـغ الكثيـر مـنهم وأصبحوا أعلاما في ظلها .

فالإسلام بطبيعته يرفض التعصب والانغلاق ويعتبـره مـن الجاهلية وآفاتها بينما نرى الحضارة الغربية هـي حضـارة اللـون والعرق والقوم رغم ادعائها الإنسانية، ومن هنا فإن أيـة حضـارة ترتكز على اللون أو العنصر أو القـوم أو العـرق هـي حضـارة عنصرية عدوانية بطبيعتها وأصل تكوينها لا تستطيع أن تعيش بدون عدو أو عدوان فإن لم يوجد لها عدو حقيقي ، تحاول أن تصنع لهـا عدوا ولو كان وهميا ــ ولذلك كانت فكرة الصراع الحضاري أو ما يسمى بصراع البقاء والبقاء للأقوى هي الأساس الذي تقـوم عليـه الحضارة الغربية بمذاهبها المتعددة وتطبيقاتها المتنوعة ، والصـراع يعنى فيما يعني : محاولة إلغاء الآخر بشتى الأساليب والوسائل، ومن ثم فإن آية حضارة أو ثقافة تفتقد النزوع الإنساني هي حضارة تمييز وتعال. الأمر الذي يقودها إلى الاعتقاد بأن البقاء والهيمنة مرهونـة بإلغاء الآخر [٢].

ومهما يكن من شئ : فإن حضارة الغرب في وضعها الراهن، هي حضارة القوة والصراع وتسلط الإنسان على أخيه الإنسان ولـو بدت على غير ذلك بسبب التضليل الإعلامي والتاريخ والحاضر الذي تتعرض فيه البشرية لأقسى ألوان الاعتداء ، والواقع يشهد بـذلك . بينما نرى الحضارة الإسلامية حضـارة رحمـة وحـب وهدايـة ، واحتساب واعتراف بالآخر ، وليست حضارة حـقـد أو صـراع ، بل هـي حضـارة الإنسـان التي تدعـو إلـى الحـوار على كلمـة سـواء ، وتقـوم علـى الدعـوة إلى الله تعـالى بالحكـمة والموعـظة

---

(١) سورة سبأ / ٢٨ .

(٢) انظر الإسلام وصراع لحضارات ص / ٣٠ ـ ٣٢ ـ د/ أحمد القديدي ـ مرجع سابق .

الحسنة وترفض كل أشكال الإكراه في الدين . قال تعالى { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن..} [١] وقال تعالى { لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ... } [٢] وقال تعالى { قل يا أهل الكتاب تعلوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون } [٣].

٢ـ خاصية الأصالة :

فالحضارة الإسلامية تتميز بالأصالة لأنها تنبع من معين القرآن الكريم. فليست مجرد تصورات بشرية ، أو نظريات حديثة وإنما هي نتاج تعاليم الإسلام ، وتوجيهات النبي صلى الله عليه وسلم، فهي أصيلة في منبعها ومصدرها الأول وهو القرآن ذلك الكتاب الإلهي الذي تعهد الله سبحانه بحفظه في الصدور والسطور من بين سائر الكتب السماوية الأخرى كما قال سبحانه { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون } [٤] وقد نزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم تبيانا لكل شئ وتفصيلا لكافة مجالات الحياة قال تعالى { ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى وبشري للمسلمين } [٥] فهو الكتاب الإلهي الذي تضمن الحديث عن أصول دعوة الإسلام من عقائد وعبادات ، ونظم وتشريعات وسلوك وأخلاق ، وكلها تعد في نظر الإسلام من دعائم بنيان الحضارة [٦] .

ومن هنا فليس من الصواب اتهام العرب كافة بالجهالة والتأخر فقد كانت هناك حضارات عربية قديمة نبتت في أرضهم ، وشرقت وغربت على أيديهم ، ولما جاء الإسلام بنوره فتح أبصارهم على شتى العلوم والمعارف ، وأزال عن قلوب العرب الغشاوة وبذلك أصبحت حضارة الإسلام منتشرة في كل البقاع التي وصلت إليها رسالته ، وأصبحت بعد ذلك أصلا لحضارة أوروبا التي أخذت من

---

(١) سورة النحل / ١٢٥ .
(٢) سورة البقرة / ٢٥٦ .
(٣) سورة آل عمران / ٦٤ .
(٤) سورة الحجر / ٩ .
(٥) سورة النحل / ٨٩ .
(٦) أضوء على الثقافة الإسلامية ص ٣٦ ـ د/ مصطفى أبو سمك . مرجع سابق ـ بتصرف .

العرب المسلمين ، وتتلمذت عليهم ، وسارت على نهجهم ، ولا نقول هذا من موقع التعصب بل هي الحقيقة التي اعترف بها المنصفون من علماء الغرب أنفسهم من أمثال "جوستاف لوبون" في كتابه (حضارة العرب) حيث يقول : " إن العرب في أسبانيا هم الذين فتحوا عيون الأوربيين على العلم والثقافة والحضارة ، وأن أسبانيا بعد خروج العرب منها قد خسرت خسرانا مبينا " [١]

لقد شهد القاصي والداني بأصالة الحضارة الإسلامية وأنها ناشئة من العمل بتوجيهات القرآن وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان ما اطلع عليه المسلمون من تجارب حضارات الأمم الأخرى مجرد عوامل مساعدة لنمو حضارتهم ، فإنه لولا وجود الاستعداد للإنشاء والابتكار لدى المسلمين الأوائل لما تمكنوا من صنع هذه الحضارة العالمية الأصيلة ، ولعل هذه الأصالة في حضارة الإسلام كانت من وراء استمرارها وبقائها . [٢]

٣ـ خاصية الانفتاح والاقتباس المنضبط :

فمن الإنصاف والحكمة في مجال البحث العلمي أن نؤكد على أن الحضارات الإنسانية بصفة عامة هي في الواقع سلسلة متماسكة الحلقات يؤثر السابق منها في اللاحق. فهي متواليات من الجهد المادي والعقلي الذي يضم الجنس البشري بكامله ، ومع ذلك فقد انطبعت كل حضارة بطابعها المتميز المستمد من تصور أهلها للكون والحياة . ومن المسلم به أن الحضارة الإسلامية قد مثلت حلقة من أهم حلقات هذه السلسلة الحضارية فقد تميزت عن غيرها من الحضارات بخاصية الانفتاح والتجاوب مع الآخرين والاستفادة من خبراتهم التجريبية مع الاحتفاظ بذاتيتها الأصيلة دون الانصهار مع الآخرين ، وهي خاصية تكفل لها النماء المطرد والازدهار الدائم ، فهي حضارة لا تنغلق على نفسها ، ولا تمنع من الاقتباس عن الغير فيما ينفع ويفيد البشرية فهي حضارة تأخذ وتعطي ، تأخذ تجربة حية، وتعطي غيرها ما يكون لديها من ثمرات [٣] ، وبهذا التجاوب

---

(١) انظر حضارة العرب لجوستاف لوبون ـ ترجمة : عادل زعيتر .
(٢) انظر مجلة الأزهر ص / ١٤٨٦ ـ عدد شوال سنة ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١م ـ بتصرف .
(٣) انظر قيم حضارية ج٢ / ١١٢ ـ ١١٥ ، ١١٦ ـ ١٢١ للأستاذ / توفيق محمد سبع ـ وانظر أثر الحضارة العربية في الغرب ص / ١٠٥ ـ عباس محمود العقاد ، وانظر أيضا التواصل الحضاري والحفاظ على الذاتية ص / ٥ ـ د/ سعد الدين السيد صالح ـ بتصرف يسير .

المستمر والتفاعل لا تعيش حضارة الإسلام في عزلة أبدا عن تجارب البشر . بل تأخذ تجارب الحياة وفروع المعرفة ، وكل ما يرتبط بنتائج العلم التجريبي ، والابتكار المثمر في الحياة بشرط أن يكون في ذلك ما يثري حضارتنا ، ويعود على المجتمعات الإسلامية بالخير .

أما حين يتعارض هذا الاقتباس مع عقيدتنا أو تراثنا الإسلامي فإننا لا ننقله وإنما نرفضه ولا نقبله لأنه يتعارض مع ثوابتنا الإسلامية . لأنه اقتباس وأخذ بصير يعتمد على النقد والتمحيص ، وليس نقلا عشوائيا بلا تبصر أو روية وليس عيبا أن تأخذ حضارة عن حضارة أخرى بهذه المقاييس حيث إن تجارب البشر ليست ملكا لأحد ، وعلى هذا الأساس فقد تفاعلت العقلية العربية الإسلامية مع الثقافة الفارسية واليونانية والرومانية تفاعلا خصبا ، واستطاعت العقلية العربية الإسلامية بما منحت من خاصية الاستيعاب الحضاري أن تستثمر ذلك كله في إقامة حضارة رائعة تتمازج فيها عناصر شتى" [١] . وبناء على ما تميزت به حضارة الإسلام من هذا الاقتباس كان موقف المسلمين من حضارات الأمم الأخرى قائما على المرونة والإنصاف ، فحضارة القرآن قد أخذت عن الغير الأخذ البصير الواعي الذي ينتج الإبداع كالنحلة تمتص رحيق الزهر ثم تحوله في باطنها عسلا حلوا شهيا ثم تقدمه للناس كافة " [٢] .

* * *

(١) أثر الحضارة العربية في الغرب ص / ١٠٦ ـ العقاد .
(٢) قيم حضارية ج٢ / ١٢١ ـ توفيق محمد سبع ، وانظر التواصل الحضاري والحفاظ على الذاتية د/ سعد الدين السيد صالح ـ بتصرف .

المبحث الثالث

" الإسلام والتواصل الحضاري"

إن الإسلام ينظر إلى البشر جميعا على أنهم وحدة إنسانية متساوية في الخلق لله الواحد الخالق ، وعلى أنهم في ذات الوقت متعددين في الروابط والجماعات كما قال تعالى { يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ...} [١] وقال تعالى { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .. } [٢] ومن الملاحظ أن نصوص القرآن تصرح دائما " بأن تنوع البشر واختلافهم مظهر من مظهر القدرة الإلهية ، وليس سبيلا للخلاف أو العداء أو القطيعة ، وأن دلالة المفهوم من أساليب النداء في القرآن بـ {يابني آدم } تقتضي الإيحاء بالأخوة الإنسانية التي تتطلب عدم الصراع أو الشقاق " [٣] .

يقول الأستاذ العقاد رحمه الله مبينا إمكانية تفاعل الإسلام مع سائر الحضارات فيما يعود بالخير على الإنسانية : (فكل حضارة أبدعت ونقلت وكانت لها سمة تميزها بين الحضارات ، ولم توجد قط حضارة تفردت بالإبداع أو تفردت بالنقل أو خلت من السمة التي تميزها بين سمات الحضارة ، إلا أن البدعة الحديثة ، والعنصرية المدمرة التي نشأت حول الآرية والسامية قد جنحت بالأوربيين منذ ظهرت فيهم إلى اختصاص الحضارة العربية بالنقل دون الإبداع .. ولما تجدد ظهور العرب بعد الإسلام كانت لهم حضارة ولكنها كانت منقولة (هكذا كما يزعم الغرب الأوربي) ـ ولم تكن بالحضارة المبتدعة على أيديهم ، وثبتت سمة النقل بإحصاء أسماء من العلماء والمفكرين .. وأول ما يوجب التشكيك في هذه الدعوى أن نتساءل : أين هي الحضارة التي أبدعت ولم تنقل ؟ وأين هي الحضارة التي يقال عن جميع علمائها أنهم من عنصر محض خالص ينتمون إليه[٤] . " لأنه قد ثبت أن جميع الحضارات التي عرفها الإنسان استفادت من الحضارات الأخرى وأفادتها [٥] .

(١) سورة النساء /١ .
(٢) سورة الحجرات / ١٣ .
(٣) نظر دعوة الرسل ج ١ /٨٦ د/بكر زكي عوض . الطبعة الأولى ١٩٩٣م .
(٤) انظر أثر العرب في الحضارة الأوربية ص / ٢٤ ـ ٢٥ ـ طبعة دار المعارف سنة ١٩٤٦ م ـ بتصرف .
(٥) المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارات الأوربية ص / ١٧ ـ د/ سعيد عاشور ـ باختصار .

وأيا ما كان هذا التواصل فإنه في الحقيقة لا يمكن أن يقلل من شأن أية حضارة استفادت من الحضارات السابقة عليها زمنيا لأن طبيعة التطور الحضاري للجنس البشري تستلزم ذلك ، وبناء على ذلك فلم يقل أحد مطلقا بأن استفادة الحضارة اليونانية من الحضارة الشرقية القديمة يقلل من شأنها ، وكذلك لم يقل أحد أن إفادة الرومان من حضارة اليونان قد انتقص من قدرها أو أن استفادة الحضارة الغربية الحديثة من تراث الإسلام وحضارته قد حط من قدرها ، كذلك لا يستطيع أي باحث منصف أن يقلل من شأن الحضارة الإسلامية لأنها استفادت من بعض الحضارات السابقة عليها [١] . وقد امتازت الحضارة الإسلامية برحابة الصدر إزاء الحضارات الدخيلة مع القدرة على التكيف مع هذا الدخيل أو نبذه ورفضه إذا لم يقبل التكيف كما امتازت بأنها حضارة بناء لا تغلق الأبواب في وجه الثقافات الواردة ، ولكنها لا تفقد أصالتها من خلال هذا التواصل والاندماج.

ومن هنا فإن التمايز الحضاري لم يكن في يوم من الأيام يمثل عقبة في سبيل التفاعل والتواصل بين الحضارات . ذلك لأنه لا توجد حضارة إنسانية عريقة نمت وتطورت دون أن تتأثر بغيرها من الحضارات . لأن التراث الإنساني في أصله أخذ وعطاء ، ولا توجد أمة عريقة في التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث ولم تشذ حضارة من الحضارات الكبيرة عن هذه القاعدة العامة ، ولهذا السبب وجدنا الحضارة الإسلامية قد شيدها المسلمون شيئا فشيئا في تبادل حي مع الحضارات الأخرى التي التقت بها [٢] ، ويؤكد العلامة ابن رشد أهمية التواصل والالتقاء بين الحضارات مبرزا ضرورة الاطلاع على ما لدى الآخرين من ثقافات ، ومبينا أن ذلك يعد واجبا شرعيا فيقول : " فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وعذرناهم " [٣] .وعلى آية حال فإن تلاقي الحضارات وتواصلها فيما بينها قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه لكنه يتم دائما وأبدا وفق قانون التمييز بين ما هو مشترك إنساني ويطلبه العقلاء ويجدون في السعي

(١) انظر المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارات الأوربية ص / ١٧ - د/ سعيد عاشور .

(٢) الإسلام وقضايا الحوار ص ٤٨ - ٤٩ - د/ محمود حمدي زقزوق - ترجمة د/ مصطفى ماهر - إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

(٣) راجع فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ص / ١٣ - لابن رشد - المكتبة المحمودية التجارية ١٩٦٨م.

لتحصيله ، وبين ما هو خصوصية حضارية يدققون بحذر قبل استلهامه وتمثله ، ويعرضونه على معايير حضارتهم لفرز ما يقبل منه وما لا يقبل ، ونحن إذا أردنا أن نضرب الأمثلة على هذا الذي نحاول أن نثبته في هذا البحث المتواضع فلدينا مثالان شهيران وثيقا الصلة بموضوعنا وهما :

أولا : التقاء الحضارة العربية الإسلامية إبان نهضتها وازدهارها بالحضارات الفارسية والهندية واليونانية . وثانيا : التقاء الحضارة الغربية إبان نهضتها بالحضارة الإسلامية . فليس هناك شك في أن الفتح الإسلامي لبلاد فارس ، ودخول الفرس بمواريثهم الحضارية في إطار الدولة الإسلامية قد أتاح الفرص لتفاعل حضاري واسع وعميق بين الحضارة الفارسية وبين الفكر الإسلامي الذي كان هو النواة التي تتبلور حولها الحضارة الإسلامية. [١].

لكن الراصد لهذا التواصل أو التفاعل بين الفكر الإسلامي إبان تبلور حضارته وبين الميراث الفارسي الطارئ بعد الفتوحات الإسلامية يستطيع أن يميز بين ما تم قبوله وما تم رفضه من هذا الميراث . حيث كان المسلمون في تعاملهم مع حضارة فارس حذرين كل الحذر ، وشديدي الرفض والمقاومة لكل ما هو خصوصية حضارية فارسية تتعارض مع معايير الإسلام وجوهره ومعتقداته فلقد رفضت الخلافة الإسلامية وهي نمط متميز في نظم الحكم ما تميزت به مواريث الحضارة الفارسية في نظام الحكم ، وفلسفته السياسية لتي كانت ترى رأس الدولة (كسرى) ابنا للإله يحكم باسمه نيابة عنه . زاعما أن لقانونه وتنفيذه قداسة الإله والدين ، كذلك رفضت حضارتنا الإسلامية ميراث الفرس في النظام الطبقي المغلق لتعارضه مع منهج الإسلام في تحقيق المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات ، والذين يقرأون مصنفات علماء الإسلام في الملل والنحل ، ومناظراتهم الفكرية مع الفرق والمذاهب غير الإسلامية يدركون مدى المقاومة الباسلة ، والتمحيص الواعي الذي ووجهت به مذاهب الفرس وعقائدهم وفلسفاتهم من قبل الحضارة الإسلامية . [٢]

(١) الإسلام وضرورة التغيير ص ١١٤ - ١١٥ - د/ محمد عمارة - كتاب مجلة العربي لتاسع والعشرون - عدد يوليو ١٩٩٧م - الكويت - بتصرف .

(٢) المرجع السابق ص / ١١٧ - وانظر كتاب التواصل الحضاري والحفاظ على الذاتية ص ١٧ - د/ سعد الدين السيد صالح . باختصار .

الضوابط الإسلامية للتواصل الحضاري :

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الموضوع أن نؤكد على أن التواصل الذي يسمح به الإسلام بين الحضارات ليس معناه انصهار كل حضارة أو ذوبانها في الأخرى وإنما الذي نعنيه من إمكانية التواصل هو احتفاظ كل ثقافة وحضارة بخصوصيتها المميزة ، والإبقاء على طابعها ومقوماتها التي تنفرد بها ، ومقاومة كل أمة للذوبان في أية أمة أخرى إلى الحد الذي تنطمس فيه معالم هويتها.(١)

لقد وقفت الحضارة الإسلامية في تواصلها مع الحضارات السابقة موقفا متوازنا فلم ترفض تلك الحضارات رفضا مطلقا ، ولم تقبلها قبولا مطلقا ، بل كان اتصالها بها اتصالا علميا انتقائيا تأخذ منها ما ينفع وتنفي عنه خبثها ، ولم يقبل المفكرون المسلمون أي فكر معارض للثوابت الإسلامية ، وإذا استعرضنا بعض الحضارات التي عايشت الإسلام في بدايته ، وتواصلت معه فإننا نجد أن هناك الحضارة الغربية الرومانية ، والحضارة الشرقية الفارسية ، وكانت هاتان الحضارتان ثريتين بالعلوم والصناعات بالنسبة لعصرهما ، وفي الثقافة والأدب وفي النظم الاجتماعية وفي أساليب المدنية ، ولكن مع هذا كله كانتا ملوثتين بقيم منهارة ، وإباحية في الأخلاق ، ومصادرة لحرية الإنسان وانتهاك لآدميته ، وكانت هناك تصورات خاطئة عن الكون والحياة والألوهية .

فماذا عن موقف المسلمين من هاتين الحضارتين ؟ وللإجابة عن هذا التساؤل يقول أحد العلماء المعاصرين : " لقد وقف المسلمون من هذا التراث الموقف العلمي الذي يمليه عليه دينهم فأخذوا الجانب العلمي الذي ينفعهم في حياتهم ويمكنهم من التفوق على أعدائهم ويتضح ذلك من موقف الرسول صلى الله عليه وسلم حين أمر بتعلم اللغات الأجنبية ، وحين أخذ بأسلوب الفرس في القتال فأمر بحفر الخندق عندما أشار عليه بذلك سلمان الفارسي ، وحين نقل أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن الفرس نظام تدوين الدواوين ، وهكذا يتبين أن المسلمين في تواصلهم مع غيرهم

(١) انظر في فقه العلم والحضارة ص ١٠٢ - ١٠٣ د/ أحمد فؤاد باشا - سلسلة قضايا إسلامية - العدد ١٠٣ الطبعة الثانية - عدد رمضان ١٤٢٤هـ نوفمبر ٢٠٠٣م - اصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف بالقاهرة .

أخذوا كل ما يتفق مع روح دينهم ، ورفضوا كل القيم المنهارة ، وسائر النظريات والعقائد الباطلة.(١)

كيف يتم التواصل الحضاري :

إذا كنا قد أوضحنا من قبل أن الإسلام لم يمنع من إمكانية التواصل والتفاعل بين الحضارات السابقة مع الاحتفاظ بالثوابت والذاتية الإسلامية فما حقيقة هذا التواصل الذي أباحه الإسلام ، وما كيفيته التي يجب أن يلتزم بها المسلمون تجاهه حتى لا يحدث خلط الثوابت بالمتغيرات ، وحتى لا يذوب المسلمون في التيار المادي البحت الذي قامت عليه الحضارة الغربية ؟ ؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات يجدر بنا أن نذكر اختلاف وجهات نظر العلماء والباحثين في هذه القضية : فمنهم من يرى أن التواصل لا يتم إلا بنسف القديم كلية وإحلال الجديد محله ، ومنهم من يرى خلاف ذلك فيقف موقفا سلبيا جامدا خائفا من الجديد أيا كان نوعه مع محاولة الاحتفاظ بالقديم على ما هو عليه ، ومنهم من توسط في الأمر فوقف من التعامل مع الحضارات الأخرى موقفا متوازنا بحيث يأخذون منها ما لا يتعارض مع هوية الأمة ومكوناتها الذاتية ، ولأهمية هذا الاختلاف بين العلماء سوف نفصل هذه الاتجاهات الثلاثة فيما يلي :

الاتجاه الأول : يرى أصحاب هذا الاتجاه أن التواصل بين الحضارات لا يتم إلا بنسف الحضارة القديمة بكل مقوماتها وتراثها ، وإحلال الحضارة الحديثة بكل ملابساتها محل الحضارة القديمة ، وهذا الموقف يعبر عن الاستسلام والخضوع الكامل للحضارة الجديدة، وقد انبنى هذا الموقف على مفهوم خاطئ في التطور والتقدم – فهو تطور مطلق لا يقف عند شئ ولا يبقى على شئ – تطورحتى في الأسس الثابتة من العقائد والشرائع والأخلاق واللغة . إنهم يريدون بهذا الفهم الخاطئ لعملية التواصل أن يطوروا الدين نفسه لكي يلائم ما يريدون استيراده من الشرق والغرب من عقائد وأفكار وقيم وموازين وأنظمة وتقاليد ومثل وأخلاق وهذا يفقد الحضارة قيمتها . لأنه يتغافل عن الثوابت التي لا تقبل التغيير ولا التطور".(٢)

(١) انظر التواصل الحضاري والحفاظ على الذاتية ص ١٦ / د/ سعد الدين صالح ، وانظر أيضا الإسلام والغرب من التعايش إلى التصادم ص ٢٧ - ٢٩ د/ هالة مصطفى - مكتبة الأسرة - طبعة ٢٠٠٢م - إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب - باختصار .

(٢) التواصل الحضاري والحفاظ على الذاتية ص ١١ - ١٢ د/ سعد الدين صالح - بتصرف .

الإتجاه الثاني : وهو اتجاه الجامدين الذين وقفوا موقفا سلبيا ومعارضا للأخذ عن أية حضارة من الحضارات ــ فلا يقتبس منها شيئا ، ولا يسمح بدخول علم من علومها ولا ينتفع بتجارب أهلها " وهو من وجهة النظر الإسلامية موقف ينطوي على سوء تفسير للدين الذي يحث على استعمال العقل ، واقتباس الصالح النافع أينما كان مصدره " [١].

وخطأ أصحاب هذا الاتجاه وجنايتهم على الدين لا يقل عن خطأ أصحاب الاتجاه الأول. ذلك أن المجتمع الإنساني إنما يتعرض للخطر نتيجة لأحد أمرين :

الأول : أن يجمد ما من شأنه التغير والتطور والحركة ، وهذا ما حدث في عصور الانحطاط والشرود عن هدى الإسلام ، فرأينا كيف توقف الاجتهاد في الفقه ، وتوقف الإبداع في العلم ، والأصالة في الأدب ، والابتكار في الصناعة .

الثاني : أن يخضع للتطور والتغير ما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار كما نسمع في عصرنا هذا أن فئة من أبناء المسلمين يريدون خلع الأمة من دينها وعزلها عن تراثها كله باسم التطور " [٢]

الاتجاه الثالث : ويرى أصحابه أن الحضارات الإنسانية فيها الثوابت التي تحدد ماهية الفكر وهوية الأمة ، ولا يمكن لأمة أن تتقدم إلا وهي مرتكزة عليها من حيث إن الجديد لا يمكن أن يقوم إلا على القديم ، وأن الحاضر دائما هو ثمرة الماضي ، وفيها أيضا المتغيرات القابلة للتطور والاقتباس المتوازن ، وهذا الموقف الأخير في نظري هو الذي يلائم التواصل بين الحضارة الإسلامية ، والحضارة الغربية وخصوصا إذا نظرنا إلى مركز الأمة الإسلامية كخير أمة أخرجت للناس ، ومن هنا ــ فلا يجوز أن يكون مكانها في مؤخرة الركب ، ولا أن ترضى بدلا من القيادة بالتقليد والاتباع بما يجب أن يكون موقفها موقف المعتز بنفسه الذي لا يتعالى على الاستفادة من غيره ، ويأخذ ما يلائمه وما لا يتعارض مع ثوابته ، ولا يؤثر في شخصيته وثقته بنفسه ، فهذا هو الموقف الذي وقفته الحضارة الغربية قديما حين تواصلت مع الحضارة الإسلامية ، واستفادت منها حينما تم

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٩ ـ لأبي الحسن الندوي .
(٢) الخصائص العامة للإسلام ص ٢٤٤ ـ د/ يوسف القرضاوي.

التواصل بينها وبين حضارتهم في أثناء الحروب الصليبية ، وفي صقلية والأندلس فلم يأخذوا من الحضارة الإسلامية ما يتعارض مع اتجاهاتهم المادية وتراثهم القديم فقد فصلوا بين العلم والدين ، ولم يأخذوا من الحضارة الإسلامية إلا الجانب العلمي التجريبي دون الجانب العقدي والأخلاقي". [١]

المسلمون والتواصل الحضاري :

نستطيع أن نقرر في هذا الصدد أن موقف المسلمين الأوائل من الحضارات السابقة كان موقفا علميا منصفا لا إفراط فيه ولا تفريط . فقد أخذوا بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال : [الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها] [٢] وانطلاقا من هذا التوجيه النبوي الصادق انطلقوا يأخذون من الحضارات السابقة ما فيه صالحهم وما هم في حاجة إليه من المسائل العلمية التجريبية ، ولم يتأثروا في نفس الوقت بالجانب الثقافي والسلوكي والأخلاقي لهذه الأمم فترجموا علوم المادة واللسان والعمران التي تمثل الهيكل المتداول بين الحضارات مثل علوم : الطب والهندسة والفلك والرياضة والنبات ، وحتى هذه العلوم وجهها الإسلام توجيها آخر إلى غاية أخرى غير تلك التي كانت في عقول أصحابها . فقد وجهها لخدمة أهداف الإنسانية جميعا ، وتحرير الإنسان من عبودية الفرد ومنفعة الإنسان ، وذلك انطلاقا من التوجيه القرآني الواضح في قوله تعالى :{ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين } [٣] وقوله تعالى { الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور } [٤].

وعلى أية حال فإن هذا الموقف الذي وقفه المسلمون الأوائل من الحضارات السابقة على الإسلام ينبغي أن يكون هو موقفنا اليوم من الحضارات المعاصرة ، وأن يكون هو طريق التواصل بيننا وبينهما . هذا إذا كنا منصفين حقا في التعامل مع الآخرين ، فهذه الحضارات المعاصرة قد يكون فيها النافع المفيد ، وفيها الضار الذي

(١) التواصل الحضاري والحفاظ على الذاتية ص ١٥ ـ ١٦ ـ مرجع سابق ـ بتصرف .
(٢) الحديث رواه الترمذي وابن ماجه في سننهما .
(٣) سورة القصص / ٨٣ .
(٤) سورة الحج / ٤١

لا خير فيه ، وفيها المزيج من الصواب والخطأ في النتائج والأحكام ، وفيها من البديهيات في العلم ما لا يقبل الجدل ، وفيها كذلك بعض الحقائق العلمية الصحيحة ، وفيها ما يختص بإقليم أو عنصر من العلوم التطبيقية والتي يعود أثرها على البشرية كلها " [١].

ومن هنا يمكن القول : بأن الموقف الرافض لكل شئ من هذه الحضارات موقف غير علمي ، كما يكون الموقف القابل لكل شئ هو الآخر موقفا مرفوضا ٠ أما الموقف الصحيح فهو الموقف الانتقائي الذي يفصل بين العلم والمدنية من جهة ، وبين الثقافة والسلوك من جهة أخرى ٠ فنحن في حاجة إلى العلم التجريبي ، ولكننا لسنا في حاجة إلى الثقافة الغربية أو أسلوب معيشة الغرب٠

والذين يريدون منا " أن نأخذ بحضارة الغرب على علاتها ــ علما وثقافة ــ إنما يريدون لنا أن نتحرر من تاريخنا وتراثنا مع أننا أصحاب ثقافة ربانية عشنا في ظلها قرونا ، وقدنا الدنيا من خلالها٠ إننا لا ينقصنا اليوم إلا العلوم التجريبية التي كنا أصحاب منهجها في أول الأمر ٠ فلنأخذها من أي طريق بشرط أن نوجهها وجهة إنسانية غير تلك الوجهة في عقول الغربيين اليوم " [٢]

* * *

(١) انظر التواصل الحضاري والحفاظ على الذاتية ص ١٩ ـ مرجع سابق ـ بتصرف ٠
(٢) الطريق إلى الأصالة والخروج من التبعية ص ٤٢ ـ للأستاذ أنور الجندي ٠

المبحث الرابع

الإسلام وصراع الحضارات

بعد أن أوضحنا في المبحث السابق أن الإسلام يدعو إلى التواصل والتعاون بين سائر الحضارات ، وذلك في إطار المفاهيم الصحيحة التي قامت عليها تعاليم الإسلام وحضارته ٠ طالما أن هذا التواصل يتم في إطار الضوابط المشروعة دونما إفراط أو تفريط ٠ نود في هذا المبحث أن نستعرض بعض المفاهيم الخاطئة ، والشبهات الباطلة والتي توجه بين الحين والحين ضد الإسلام والمسلمين ، حيث ظهرت على الساحة بعض الأفكار والنظريات المعادية بهدف تشويه صورة الإسلام زورا وبهتانا ولا سيما في العالم الغربي ، ومحاولة التنبؤ بحتمية الصراع بين الحضارات بصفة عامة ، والحضارة الإسلامية بصفة خاصة ٠

ودعما لإشاعة هذه الصورة الخاطئة عن الإسلام في تصور الغربيين ، راجت منذ العقد الأخير من القرن الماضي ٠ دعوى صدام أو صراع الحضارات ، والتي تنبأ بها أحد الكتاب الغربيين في كتابه الذي سماه " صدام الحضارات" أو "صراع الحضارات" ويدعى "صموئيل هنتنجتون" [١] حيث ادعى من خلال كتابه هذا الصدام بين الحضارتين الإسلامية والغربية ، وهذا يعنى في زعمه أن الأصل في العلاقة بين الحضارتين أساسها الصراع ، وأنه لا محالة قادم يجب الاستعداد له بكل الوسائل ، ولعل هذا الذي تنبأ به " هنتنجتون" يذكرنا بما ذهب إليه من قبل الفيلسوف الإنجليزي " توماس هوبز" من أن الإنسان ذئب بالنسبة لأخيه الإنسان ، وأن الكل في حرب ضد الكل"[٢] فهي إذن شبهة قديمة وجديدة في نفس الوقت يتناقلها المتطرفون من مفكري الغرب لإعلان عداوتهم وعنصريتهم ضد الإسلام والمسلمين ٠

(١) هو صاحب القول بنظرية صدام الحضارات ، وهو كاتب يهودي أمريكي ، ويعمل أستاذا للعلوم السياسية ومديرا لمؤسسة جون أوين للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفرد ، ونشرت محاضرته بعنوان (صدام الحضارات) دراسة مطولة بعنوان (المصالح الأمريكية ومتغيرات الأمن) في مجلة الشئون الخارجية في يونيو ١٩٩٣م ، وهي مقالة تضع الغرب بإزاء الإسلام بصورة خاصة وعنيفة " انظر كتاب الإسلام وصراع الحضارات ص ٥٠ د/ أحمد القديدي ، وانظر المسلمون والعولمة ص ١١٠ ـ د / يوسف القرضاوي ٠
(٢) انظر صحيفة الأهرام المصرية ص ١١ ـ في مقال تحت عنوان (إعادة بناء الثقة بين العالم الإسلامي والغرب ـ د/ محمود زقزوق ـ بتاريخ ٢٠٠٤/٨/٢١م وبتصرف ٠

ورغم أن الكتاب الذي ألفه " صموئيل هنتنجتون" كان في أصله مقالة مطولة في مجلة الشئون الخارجية إلا أنه أحدث هذا الدوي الهائل في الأوساط العالمية ولا غرو أن كثرت حوله المناقشات والتعقيبات من العلماء والمفكرين.

والآن يحق لنا أن نتساءل قائلين : ما الهدف الذي دفع به إلى تأليفه لهذا الكتاب ؟ وما الفكرة الأساسية التي دعا إليها ؟ وما سبب إحداثه لكل هذا الصخب الذي كاد يصم الآذان ؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات يمكن القول :

بأن فكرة " هنتنجتون" تقوم على أن التاريخ لم ينته ، وأن الصراع لا يزال قائما بين الأمم ، ولم تغلق ملفاته بسقوط الخطر الأحمر المتمثل في الاتحاد السوفيتي، وسقوط الخطر الشيوعي معه ، بل لا يزال في جعبة التاريخ سهام لم يرم بها بعد ، ولا زال الصراع كامنا ، وأسبابه قائمة ، ولكن أسباب هذا الصراع في زعم "هنتنجتون" ليست بسبب الأيديولوجيات المختلفة كالشيوعية ، والرأسمالية ، ولا بسبب المصالح الاقتصادية المتعارضة ، ولكن الصراع الذي يخبئه المستقبل سيكون سببه في اختلاف الحضارات وتناقضها ، ومحاولة كل حضارة أن تثبت وجودها ، وتفرض رؤيتها للإنسان والكون والدين والحياة والتاريخ (١)

ولقد بين الكاتب أن هناك حضارات سبعا أو ثمانيا هي التي يمكن أن يقوم بينها النزاع والصراع في المستقبل وهي : الحضارات الغربية والكونفوشيوسية ، واليابانية ، والإسلامية . والهندية ، والسلافية ، والأرثوذكسية المسيحية ، والأمريكية اللاتينية ، ويكفي في إبطال نظريته المزعومة (صدام الحضارات) يكفي أنه اعترف أن العالم حضارات مختلفة يتميز بعضها عن بعض وهذا أمر مهم يهدم بنيان هذه النظرية الخاطئة ، ويرد على الذين يزعمون أنه لا توجد اليوم في العالم إلا حضارة واحدة أو ثقافة واحدة هي الحضارة الغربية والثقافة الغربية . فقد ادعى هؤلاء أن الثقافة الغربية أو

(١) انظر الإسلام وصراع الحضارات ص / ٥٠ د/ أحمد القديدي - كتاب الأمة - العدد ٤٤ - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م - إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بقطر ، وراجع : المسلمون والعولمة ص ١١٠ - ١١١ - د/ يوسف القرضاوي - طبعة سنة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م .

الحضارة الغربية أصبحت ثقافة أو حضارة كونية حضارة للعالم كله، والواقع أن هناك حضارات عدة في عالمنا ، ولا تزال باقية وفاعلة إلى اليوم ، ولكل حضارة فلسفتها ونظرتها إلى الإنسان والكون والحياة ، وإلى الدين والدنيا ، (١) ولها مصادرها ولها أهلها ولها تاريخها ، ولها عطاؤها وتأثيرها الممتد من الأمس إلى اليوم .

هذا — ومن المفيد في المجال أن نقر بأن لكل حضارة خصوصيتها ، وأن نبقى على خير ما فيها ، وأن نقتبس من إيجابياتها، ونتجنب سلبياتها ، وألا نقهر أمة على التخلي عن حضارتها.

صراع الحضارات في ميزان الإسلام :

لا تزال قضية الخوف من الإسلام مسيطرة على أذهان العديد من المفكرين الغربيين المتعصبين ، ولا يزال الإسلام في زعمهم هو الخطر الذي يحيك بهم وينتظرهم بعد رحيل الخطر الأحمر الشيوعي، وقد ارتبط هذا التخوف الأوروبي من الإسلام بالترويج لنظرية صراع الحضارات ، وأن هذا الصراع أمر حتمي ، وبطبيعة الحال يوضع في الحسبان ادعاء الصراع بين الإسلام والغرب في المستقبل، والهدف في النهاية هو محاولة تشويه صورة الحضارة الإسلامية حتى تتمكن حضارة واحدة هي الحضارة الغربية من أن تكون لها اليد الطولى والسيطرة على العالم كله ، وتتأكد بصورة قاطعة فكرة العولمة التي ظهرت في عصرنا الحاضر وهكذا تحاول الكتابات الغربية المعاصرة بدافع التعصب والعنصرية ضد الإسلام الخلط وتغطية الحقائق الثابتة بين الإسلام كدين عالمي وبين الواقع الحضاري المتخلف الذي يعيشه المسلمون مع أن هذا الواقع يمثل من وجهة نظرنا مرحلة عارضة في تاريخ المسلمين ، وليس حكما ثابتا أبديا بالجمود والتحجر على خمس سكان العالم . (٢)

وعلى الرغم من أن هذه الدعوى كما صورها أتباعها ومروجوها في الغرب لا تستند إلى أي أساس علمي أو واقعي يدعمها، فإن الترويج لها على نطاق واسع عبر وسائل الإعلام يمكن

(١) المسلمون والعولمة ص ١١٤ - مرجع سابق - بتصرف .
(٢) هموم الأمة الإسلامية ص / ٤٢ - د/ محمود زقزوق - طبعة ٢٠٠١م - سلسلة القراءة للجميع - مكتبة الأسرة - إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب - بتصرف يسير .

أن يجعلها تتحول بسهولة إلى أن تصبح أمرا واقعيا إذا لم تجد من يتصدى لها من العلماء والباحثين ، وهذا هو مكمن الخطر فالترويج لهذا الصدام الكوني المزعوم يمكن كما يقول عالم اللاهوت الألماني " هانزكونج" أن يعمل على إيجاد جو من الخوف ومزيد من الرعب يستخدمه أصحاب المصالح في تحقيق أغراضهم ".[١]

هذا ومن الإنصاف الذي يقوم عليه البحث العلمي أن نقف وقفة ضرورية تعقيبا على دعوى صدام الحضارات وتفنيدا لها فنقول وبالله التوفيق :

إن الأصل في كلمة الحضارة كما بينت في التمهيد هو أنها تمثل أرقى وأسمى أنواع التقدم المادي والروحي للإنسانية ، وهي في الحقيقة تعطي الإنسان أروع المبادئ والقيم التي يجب أن يسير عليها في التعامل مع الله تعالى ، ومع النفس ومع الآخرين ، وبهذا تدفع الإنسان إلى الاستقرار والطمأنينة والسلام. وليس إلى الصراع أو الصدام . إنها تعنى التسامح الإيجابي المنضبط بآداب الشرع ، وتعنى كذلك قبول الآخر والانفتاح على كل الحضارات في الإطار الصحيح. [٢]

ومن أجل ذلك فإنها تمثل حصون الإنسانية ضد النزاعات العبثية والمدمرة ، ولكنها بالقطع ليست سببا لها . لأن هدف الحضارات الحقيقي هو بناء نظام يضمن للإنسانية العدل والأمن والاستقرار ، وهذا في تقديري هو المنطق السليم والتصور الصحيح الذي يعترف به كل عاقل منصف ، ولا يماري فيه إلا كل متعصب جاهل.

ومن ثم نستطيع القول بأن أسباب النزاعات أو الصراعات التي تحدث بين البشر وهذا أمر ثابت لا مفر من وقوعه ــ ليست هذه النزاعات ــ كما يزعمه "هنتنجتون" في اختلاف الحضارات ــ بل إن الصدامات قد تنشأ داخل الحضارة الواحدة وهذا أمر قد ثبت وقوعه لدى الغربيين على وجه الخصوص. كما حدث ذلك في الحربين العالميتين في النصف الأول من القرن العشرين الماضي

(١) صحيفة الأهرام المصرية ص ١١ ـ د/ محمود زقزوق . بتصرف .
(٢) انظر الإسلام وقضايا الحوار ص / ٤٧ ـ د/ محمود زقزوق ، وانظر المسلمون والعولمة ص ١٢٣ ـ د/ القرضاوي ـ بتصرف.

والأمر الجدير بالذكر هنا : أن ضحايا هاتين الحربين داخل الحضارة الأوربية الواحدة قد زاد على ستين مليونا من البشر ، وذلك خلال نحو عشر سنوات فقط حيث كانت الفترة التي شهدتها الحرب العالمية الأولى تبدأ من (١٩١٤م ــ ١٩١٨م) والحرب العالمية الثانية من (١٩٣٩م ــ ١٩٤٥م) وذلك في حين أن أعداد ضحايا الحروب التي دارت بين أوروبا والإسلام على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان تعد بالنسبة إلى ذلك بمثالة قطرة في بحر ، ولا وجه للمقارنة بينها وبين ضحايا الحربين العالميتين . [١]

ومن هنا فإنه إذا حدثت صدامات بين الحضارات فإنه يتحتم على العقلاء والمنصفين البحث عن أسباب أخرى لذلك غير الحضارات ذاتها ، ولا نقول هذا على سبيل المجاملة أو التعصب لحضارتنا الإسلامية أو الدفاع عنها ولكنها الحقيقة التي يثبتها التاريخ بإنصاف . فقد تكون الأسباب متمثلة في السعي للسيطرة السياسية لبعض أصحاب المصالح والأطماع ، أو الهزيمة لبعض القوي العالمية على مقدرات العالم ، أو السعي للحصول على مصالح مادية أو غير ذلك من أسباب أخرى مشابهة كما هو ماثل للعيان في عالم اليوم من التجاهل وعدم الاكتراث على الجانب الغربي لتلك الإبادات الجماعية التي حدثت للمسلمين في البوسنة في العقد الماضي في أماكن كانت تحميها قوات دولية ، وكان يمكن أن تمنع تلك المذابح الجماعية لو كان هناك أدنى قدر من الاهتمام بمصير هؤلاء البشر ، وأيضا فإن ما يحدث اليوم في فلسطين والعراق من قتل وتشريد وتدمير للبشر ، والمنازل والمزارع والأشجار ، وكل وسائل الحياة تحت سمع وبصر العالم ، وبصفة خاصة تحت سمع وبصر القوى الفاعلة في العالم على الجانب الغربي ــ أمر يفوق كل تصور [٢] ، ويأباه كل العقلاء والمنصفين .

وعلى أية حال فإن الإسلام كدين إلهي لا يرى حتمية الصراع بصفة دائمة ومستمدة كما يزعم المتعصبون من مفكري الغرب ، وإنما يقر بالتعددية في مجتمعات البشر أو بمعنى آخر تعددية الحضارات واختلافها ، ويرى أن هذه التعددية والاختلاف بين البشر

(١) المرجع السابق ص ٥٣ ـ ٥٥ ـ بتصرف .
(٢) صحيفة الأهرام المصرية ص ١١ ـ د/ محمود زقزوق ـ في مقالة : (إعادة بناء الثقة بين العالم الإسلامي والغرب ـ بتصرف.

لا يجوز أن يكون مدخلا للنزاع أو الشقاق بل إن التعددية التي يعترف بها الإسلام ينبغي أن تكون أساسا للتعارف والتعاون والتواصل ، ومن ثم كان من الإنصاف أن نقرر أن نظرية الصراع الحتمي للحضارات مرفوضة أساسا من الإسلام الذي يقرر أن الناس جميعا قد خلقوا من نفس واحدة كما قال تعالى : { يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ... } [١] الآية، وأن العدوان على نفس واحدة يعد عدوانا على البشرية كلها قال تعالى : { من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ... } [٢] الآية .

هل صدام الحضارات ضرورة لا مفر منها ؟ أو هو أمر محتمل ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل يقول بعض العلماء المعاصرين : " إن الصراع بين الحضارات ليس ضرورة توجبها طبيعة اختلاف الحضارات وتمايزها عن غيرها . فقد تستطيع الحضارات المختلفة في ازدهارها ورقيها أن تتحاور ، وأن تتعايش ولا تتصارع بل يأخذ بعضها من بعض عن طريق التلاقح والتبادل والتواصل كما أشرت إلي ذلك من قبل في المبحث الثالث ، وإنما يتحتم الصراع حين تريد حضارة أن تفرض نفسها ورؤيتها ومبادئها على غيرها بمنطق القوة لا بقوة المنطق في حين يرفض ذلك الآخرون وهنا يكون الصدام".[٣]

إذن فالاختلاف بين الحضارات ليس من الضروري أن يكون دائما اختلاف صراع وتناقض بل ينبغي أن يكون اختلاف تنوع ، والتنوع في أصله مصدر ثراء وخير للجميع ، وأما الصراع فوراءه مفاسد كثيرة ، وعواقبه وخيمة إلا أن يكون صراعا مفروضا على الإنسان دفاعا عن حق مشروع . لأننا نحن المسلمين نعتقد أن الاختلاف بين الناس واقع بمشيئة الله تعالى المرتبطة بحكمته سبحانه، فلا يشاء إلا ما فيه الحكمة سواء كان هذا الاختلاف في اللغة واللون كما في قوله تعالى { ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف

---

(١) سورة النساء /١

(٢) سورة المائدة / ٣٢ .

(٣) المسلمون والعولمة ص ١١٦ - ١١٧ - د/ يوسف القرضاوي - بتصرف .

ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين}[١] . أم كان هذا الاختلاف في الدين فهو أيضا واقع بمشيئته عز وجل قال تعالى : {ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير } [٢] . بل بين القرآن الكريم أن الله إنما خلق الناس ليختلفوا ويتنوعوا ، قال تعالى : { ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ..}[٣] قال القرطبي رحمه الله في تفسيرها: " أي وللاختلاف خلقهم " ، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك في معناها : " ولرحمته خلقهم " [٤] اهـ

سنة التدافع لا الصراع :

إن لله تعالي في هذا الكون سننا ثابتة لا تتبدل ، وقوانين عامة لا تتغير بتغير الإنسان والزمان ، بل هي قائمة ومستمرة ما بقيت الحياة على الأرض لا تتخلف أبدا، وتعمل بين الناس بالعدل فلا تجامل أحدا على حساب أحد . قال تعالى : { ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا } [٥] وقال تعالي : { سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا } [٦]

ومن هذه السنن الجارية الثابتة سنة المدافعة أو التدافع وهي مأخوذة من قوله تعالى : { ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز } [٧] فهذا التدافع لا الصراع كما يسميه الغربيون المتعصبون – هو طبيعة الحياة الإنسانية لأن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون هذا التدافع قانونا عاما، وسنة كونية يجب أن يخضع لها المؤمنون والكافرون في هذه الحياة، فنجد الكفر يحاول أن يفرض نفسه ، وفي مقابل هذا التحدي تنشط قوى الإيمان وتظهر معادن الناس لكي يبقى الإيمان ، ويمكن

---

(١) سورة الروم / ٢٢ .

(٢) سورة الشورى / ٨ .

(٣) سورة هود / ١١٨ ، ١١٩ .

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن - المجلد الرابع ص ٣٤٣٤ - للإمام القرطبي - الطبعة الأولى ١٩٨٩م - طبع ونشر وتوزيع دار الغد العربي بالقاهرة .

(٥) سورة فاطر / ٤٣

(٦) سورة الإسراء / ٧٧ .

(٧) سورة الحج / ٤٠ .

الله تعالى للمؤمنين ويجعلهم الوارثين ، وهذا التدافع الحضاري هو في الحقيقة جزء من الاختبار الإلهي ، وجزء من التمكين للمسلمين في الأرض". [١]

فالتدافع بهذا المفهوم القرآني يعد سنة كونية ، وضرورة لدفع الفساد في الأرض حتى لا يبغي بعض الناس على بعض ، ولولا هذا التدافع لساد قانون الغابة ، وافترس القوي الضعيف ، وأكل الكبير الصغير كما هو قانون البحر وعالم الأسماك والحيتان . [٢]

وقد ذكر القرآن سنة التدافع في موضع آخر للتأكيد على أن العلاقة بين الأمم تنطلق في بعض أحوالها من هذا التدافع كما في قوله تعالى : { ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين } [٣]

وحين أذن الله تعالى للمسلمين أن يقاتلوا دفاعا عن أنفسهم وعقيدتهم بعد أن ظلوا ثلاثة عشر عاما في مكة يعانون الأذى والاضطهاد والفتنة في دينهم ، حتى قتل منهم من قتل ، وهاجر من هاجر ، وذلك كله بسبب طغيان المشركين ، واستكبارهم في الأرض بغير الحق ، واستضعافهم للمؤمنين ، ومع ذلك فقد أمروا بالصبر والاحتمال وكف الأيدي طوال العهد المكي حتى كانت الهجرة إلى المدينة ، وكانت لهم أرض حرة يقفون عليها ، وشعب مؤمن قوي يعيش فيها ، وقيادة حكيمة [٤] ممثلة في الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ومن ثم أذن الله لهم وخضوعا لسنة المدافعة أن يدفعوا القوة بالقوة حماية للحق وتمكينا للدعوة الإسلامية ، ومنعا للفتنة في الدين ، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله قال تعالى : { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ... } [٥]

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن ص / ١٢٧ - ١٢٨ - للشيخ محمد الغزالي رحمه الله - الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م - دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع بالمنصورة - بتصرف .

(٢) المسلمون والعولمة ص ١٢٠ - ١٢١ - مرجع سابق .

(٣) سورة البقرة / ٢٥١ .

(٤) المسلمون والعولمة ص ١٢٣ - مرجع سابق - بتصرف .

(٥) سورة الحج / ٣٩ - ٤٠ .

وهذا الذي صرح به القرآن الكريم هو الحق الصراح الذي ينسجم مع الفطرة السليمة ، ويقربه العقل الصحيح . وسوف أعرض في المبحث الخامس إن شاء الله تعالى بعض الآراء المنصفة من جانب المستشرقين المنصفين والذين أجمعوا على أن التواصل بين الحضارات حقيقة ثابتة تؤيدها كل الأديان الإلهية المنزلية ، وعلى أن الأصل في التعامل بين المجتمعات الإنسانية على مدار التاريخ هو التواصل ، وعلى أنه إذا حدثت بعض الصراعات فيما بينها لأي سبب من الأسباب فهي مجرد استثناء من القاعدة . وإليك نموذج لبعض هذه الآراء والشهادات المنصفة ليتأملها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

* * *

المبحث الخامس

" المنصفون وموقفهم من صراع الحضارات"

إذا كانت الأصوات التي تروج لصدام الحضارات قد وجدت أصداء واسعة في الشرق والغرب ، فإننا نجد في نفس الوقت جهودا وآراء منصفة بين العديد من مفكري الغرب ترفض رفضا باتا تلك المقولة الظالمة التي آثارها "صموئيل هنتنجتون" حول صراع الحضارات بصفة عامة ، وبين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية بصفة خاصة تحت ستار التخوف من الإسلام ولا سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م .

ومن الأمثلة على ذلك ما شهده العقد الأخير من القرن العشرين من الرفض الواضح في بعض البلاد الغربية لهذا الادعاء الخاطئ من جانب المتعصبين .

ومن بين تلك الأصوات العاقلة المنصفة في الغرب صوت " الأمير تشرلز" ولي عهد بريطانيا حيث ألقى محاضرة مهمة في ٢٧ اكتوبر ١٩٩٣م تحت عنوان : (الإسلام والغرب) قام بنشرها مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية حيث صرح فيها برفض مقولة صدام الحضارات قائلا : " أنا لا أوافق على مقولة صدام الحضارات ، بل إنني على قناعة تامة بأن لدى عالمينا (يقصد العالم الإسلامي والعالم الغربي) الكثير لكي يقدماه إلى بعضهما البعض " كما أشار أيضا إلى أن الكثير من المزايا التي تفخر بها أوربا العصرية ــ قد جاءت أصلا من أسبانيا أثناء الحكم الإسلامي . وانتهى في محاضرته إلى القول : " بأن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا في جميع مجالات البحث الإنساني ، وقد ساهم في إنشاء أوربا المعاصرة . إنه (يعني الإسلام) جزء من تراثنا وليس شيئا منفصلا عنه " . [١]

وها هو أحد المستشرقين المنصفين من أبناء الغرب الذين فهموا صحيح الدين بموضوعية دون تزييف أو تحريف ، وهو المستشرق الألماني [٢] " فريتس شيتبات" الذي أتحفنا بكتابه " الإسلام

---

(١) انظر الإسلام في عصر العولمة ص ٨٧ ـ د/ محمود حمدي زقزوق ـ في مقال تحت عنوان [الإسلام وحوار الحضارات] ، وانظر كتاب [الإسلام شريكا] ـ دراسات عن الإسلام والمسلمين ص ٦٣ ـ ٦٦ تأليف : فريتس شتيبات ـ ترجمة : د/ عبد الغفار مكاوي ـ سلسلة عالم المعرفة ـ عدد ابريل ٢٠٠٤م ـ الكويت ـ بتصرف .

(٢) مستشرق ألماني . ولد سنة ١٩٢٣م في مدينة كيمنتز بألمانيا ، والعميد السابق لمعهد العلوم الإسلامية بجامعة برلين الحرة من ١٩٦٩م ، إلى ١٩٨٨م ، والأمين العام السابق لجمعية الاستشراق الألمانية ، قضى

شريكا " وقدمه للعربية مترجما الدكتور عبد الغفار مكاوي بأسلوب أدبي راق : وفيه دعا الغرب صراحة إلى اتخاذ الإسلام شريكا في صنع الحضارة الإنسانية لا عدوا أو خصما كما يدعي " صموئيل هنتنجتون" في كتابه " صدام الحضارات والنظام العالمي الجديد" بل امتد إنصاف هذا المستشرق الألماني بأن حمل الغرب مسئولية كل ألوان العنف والصراعات الدموية في معظم بلاد الشرق لما يشعر به المسلمون من ظلم لاتباع سياسة المعايير المزدوجة التي أضرت بمصالحهم كثيرا ، ولعل أبرزها في دنيا الناس اليوم قضية فلسطين والعراق.

ومن المفيد في هذا المجال أن أنقل للقارئ الكريم بعض الآراء المنصفة التي سجلها هذا المستشرق في كتابه حيث يقول : " ولست أضيف جديدا إذا قلت أننا نلاحظ منذ سنوات قليلة ميلا شديدا ومفاجئا في الغرب إلى اعتبار الإسلام خطرا يهدد العالم الحر بل اعتباره مصدر الإزعاج الباقي للسلام في الأرض ، لقد بدأت هذه الظاهرة (يقصد ظاهرة التخوف من الإسلام واعتباره عدوا) مع تفكك الإتحاد السوفيتي وانهيار النظم الشيوعية في أوروبا الشرقية ، وتفسير هذه الظاهرة يفرض نفسه بنفسه ، فمن الناس من يشعر ببساطة بالحاجة الدائمة لمواجهة خطر أو عدو يهدده ، وإذا كان الخطر الشيوعي قد انحسر فإن الإسلام والعدو الإسلامي هما البديل المناسب " [١] ثم يصرح هذا المستشرق في عدالة وإنصاف وشجاعة فيقول " ولهذا أعتقد أنه لا ينبغي أن تترك هذه الظاهرة بغير تفسير وتعليق دقيق لا سيما إذا تبنتها جهات محترمة في نظره أو ارتفعت بها أصوات مؤثرة " [٢] ثم يتابع المستشرق نقده ومعارضته لشبهة صراع الحضارات قائلا : " ومجمل القول أن العيب الذي يؤخذ على "هنتنجتون" في شأن الحضارات هو أن هذه الحضارات ليست متجانسة بل ولا محددة تحديدا كافيا للتمييز القاطع بينها ، وينبغي أن نذكر وجها من وجوه الاعتراض على نموذج "هنتنجتون" فإعطاء الدين هذا الوزن الكبير ، واعتباره العامل المحدد لتكوين الجماعات

أكثر من عشر سنوات من عمره في القاهرة وبيروت وأتيحت له الفرصة لمعرفة الحياة والمجتمع في العالم العربي عن كثب ، والاتصال بكثير من الباحثين والعلماء العرب عن قرب.

(١) الإسلام شريكا ص ٦٥ ـ تأليف : فريتس شتيبات ـ بتصرف .

(٢) المرجع السابق ص ٦٥ .

يمكن أن يؤدي إلى نتائج خطيرة ، خصوصا أن "هنتنجتون" ينظر في الأساس إلى الصراع على أنه يعنى الحرب . حيث يزعم في مقاله عن الحضارات " أن خطوط الحدود الخاطئة التي تفصل بين الحضارات ستكون في زعمه هي خطوط المعارك في المستقبل " والحرب العالمية القادمة ــ كما يدعي "صموئيل هنتنجتون" إذا قامت مثل هذه الحرب ستكون حربا بين الحضارات، ويبدو له (أى لهنتنجتون) بوضوح من سيكون هو العدو الأول للغرب في مثل هذا الصدام بين الحضارات . إنه في زعمه هو الإسلام الذي يملك في زعم هذا المستشرق المتعصب "هنتنجتون" حدودا دموية بل إنه يرى أن الإسلام والصين الكونفوشيوسية يشكلان ارتباطا عسكريا لمواجهة القوة العسكرية في الغرب . ثم يتابع المستشرق الألماني نقده قائلا : " إن " هنتنجتون" حتى ولو أخذ حضارات أخرى في الاعتبار إنما يضع في الواقع إطارا نظريا لاستنفار كل من أتباع الإسلام والمسيحية تجاه الآخر ، وهكذا نجده يتنبأ بنبوءة يتوقع لها أن تتحقق .[١]

ثم يصرح المستشرق الألماني بخطأ وبطلان فرية صدام الحضارات قائلا : "إنني مقتنع تماما بأن هذا الاتجاه العنصري المعادي للإسلام من جانب الغربيين خطأ فادح في التفكير ، ولكي أكون أكثر تحديدا فإنني أقول : إنه لا المسيحية ولا الإسلام بحكم طبيعتيهما وماهيتيهما (لعله يقصد بالمسيحية هنا : المسيحية المنزلة كما جاء بها عيسى عليه السلام لا كما جاءت بها الأناجيل المحرفة) يريدان الحرب ، ونحن نعلم من التاريخ أن كليهما قد استغل في بعض العهود لتبرير الحرب، وتعبئة بعض أتباعهما للقتال ، ولكن لا ينبغي أبدا أن نعتبر أن ذلك كان هدفهما الحقيقي ... إن "هنتنجتون" يبني آراءه بقصد أو بغير قصد على افتراض مؤداه أن الأديان يواجه بعضها البعض بطريقة لابد أن تؤدي بالضرورة إلى كل أنواع الصراع بما في ذلك الصراعات العنيفة ، وأنا في الحقيقة المجردة من التعصب أو الهوى أرفض هذا الافتراض رفضا تاما لأنه ليس أمرا حتميا أن يكون الصراع دائما هو القاعدة أو الأصل . [٢]

(١) انظر : كتاب " الإسلام شريكا " ص ٦٧ - مرجع سابق - بتصرف .
(٢) المرجع السابق ص ٦٥ - بتصرف يسير .

ولم يتوقف إنصاف بعض المستشرقين في تأكيدهم على التواصل الحاضري ــ عند القرن العشرين فحسب بل شهدت أوروبا من قبل خلال القرن التاسع عشر الميلادي مستشرقين منصفين آخرين أشادوا بعظمة الإسلام والمسلمين ، وبفضل الحضارة الإسلامية وتفوقها على سائر الحضارات ، ولم تخل أوروبا من مؤرخين منصفين أبصروا ما للعرب المسلمين على الخصوص من فضل في تمدين أوروبا . حتى وصل الأمر ببعضهم إلى أن ألفوا كتبا اعترفوا فيها للعرب بما ليس فيه الكفاية ، ومن أمثال هؤلاء المستشرق الفرنسي الشهير "جوستاف لوبون" وهو الذي هدته رحلاته في العالم الإسلامي إلى أن العرب هم الذين مدنوا أوروبا ، فرأى أن يبعث عصر العرب الذهبي من مرقده ، وأن يبديه للعالم في صورته الحقيقية ما استطاع فأخرج في سنة ١٨٨٤م [١] كتابه الشهير " حضارة العرب" يعترف فيه بفضل العرب المسلمين وعظمة حضارتهم ، والتواصل بينها وبين سائر الحضارات .

ومما ذكره صاحب كتاب " حضارة العرب" عن فضل الحضارة الإسلامية وتواصلها الإيجابي بين الحضارات قوله : " فإذا ما ظهرت أمة ذات حضارة راقية كانت هذه الحضارة ثمرة ماض طويل ، وأن جهل الناس بهذا الماضي الطويل لا يعني عدم وجوده ، وأن الحضارة التي أقامها العرب (يقصد المسلمون) في أقل من مائة سنة هي من أنضر الحضارات التي عرفها التاريخ ليس مما يأتي عفوا ، وأنه كان للعرب قبل الإسلام حضارة لم تكن دون حضارة الآشوريين والبابليين تقدما ."[٢] .

ثم يتابع جوستاف لوبون اعترافه بعظمة حضارة الإسلام وتقدمها وتأثيرها على سائر الحضارات قائلا : " إن العرب مدنوا أوروبا مادة وعلما وأخلاقا ، فقد كان عرب الأندلس يتصفون بالفروسية المثالية خلال تسامحهم العظيم ، فكانوا يرحمون الضعفاء ، ويرفقون بالمغلوبين ، ويقفون عند شروطهم ، وما إلى ذلك من الخلال التى اقتبستها الأمم النصرانية بأوروبة منهم مؤخرا ... وأثر عرب الأندلس في أخلاق الناس فهم الذين علموا الشعوب

(١) انظر كتاب " حضارة العرب " لمؤلفه : جوستاف لوبون ص المقدمة - ترجمة الأستاذ/ عادل زعيتر - الطبعة الثالثة ١٩٥٦م - طبع عيسى البابي الحلبي - القاهرة .
(٢) حضارة العرب ص ٦ - جوستاف لوبون .

النصرانية[١] ، وإن شئت فقل : حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن أثمن ما تصبوا إليه الإنسانية ، ويمكن القول بأن التسامح الديني كان مطلقا في دور ازدهاره العرب ، ومثل هذا التسامح مما لم تصل إليه أوروبة بعد ما قامت به في أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة ، وما عانته من الأحقاد المتأصلة ، وما منيت به من المذابح الدامية .

إنه كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم ، وإن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم ، والعرب هم الذين هذبوا بتأثيرهم الخلقي البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان ، والعرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية فكانوا ممدنين لنا وأئمة لنا ستة قرون ، وظلت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية مصدرا وحيدا تقريبا للتدريس في جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة قرون، وإذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة ، فعلى العالم أن يعترف للعرب (المسلمون) بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافا أبديا * ويقول " مسيو ليبدي " " لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة في الآداب عدة قرون " ١٠هـ [٢]

الخلاصة : ـ

ومن خلال هذه الشهادات المنصفة ، والاعترافات الصريحة من جانب المنصفين من المستشرقين القدامى والمعاصرين يتضح أن هناك اتجاها قويا ومنصفا يرفض بشدة فرية صراع الحضارات المزعومة وهو اتجاه أقوى حجة ومنطقا من تيار " صموئيل هنتنجتون" ومن يوافقه في زعمه ، ولكن الشئ المؤسف في نظر الباحث المنصف أنه قد تم تسليط الأضواء على نحو مريب على إدعاءات "هنتنجتون" المعادية للإسلام وتم تضخيمها إعلاميا ، وفي نفس الوقت غابت عن الساحة الإعلامية تلك الأفكار الإيجابية ، والشهادات المنصفة ، والأصوات العاقلة التي ترفض صدام

(١) المرجع السابق ص ٢٠ بتصرف .
(٢) انظر : حضارة العرب ص ٢٠ ، ص ٥٦٤ ـ ٥٦٥ ـ لمؤلفه : جوستاف لوبون .

الحضارات الأمر الذي أصاب الكثيرين في عالمنا الإسلامي بشئ من الدهشة والإحباط ، وأعتقد أنه قد آن الأوان لأن نعطي لهذه الأصوات العاقلة والمنصفة فرصة لتأخذ مكانها في خضم المناقشات التي تعقد بين الحين والحين حول صراع الحضارات في عالمنا الإسلامي [١] . وأن تتجاوب معها بهدف تعبيد الطريق أمام التواصل الحضاري المنضبط بين الحضارات الإنسانية الأمر الذي من شأنه أن يسهم بدور كبير في تحقيق الأمن والاستقرار لعالمنا المعاصر ، ولا سيما في هذا المنعطف الخطير الذي تمر به معظم أقطار الأرض.

وعلى أية حال : فإن الإسلام يرفض كل دعاوى صدام الحضارات [٢] التي روج لها البعض في عصرنا الحاضر ، ويدعو الإسلام أيضا إلى التواصل والتعاون الإيجابي استنادا إلى ما بين الحضارات التي صنعها الإنسان في إطار منظومة الأديان الإلهية المنزلة من قواسم مشتركة . فجوهر الإنسان واحد في كل زمان ومكان، والاختلافات بين الأمم والحضارات هي مجرد أمور طرأت على البشرية فضلا عن أنها قابلة بلا ريب للتغير في التعديل اتباعا للسنة الإلهية في المجتمعات ، وإذا كانت سنة الحياة التنوع فليس هناك بأس من التمايز الحضاري الذي من شأنه أن يثري التجربة عن طريق التفاعل الثقافي والحضاري من أجل مستقبل الإنسانية كلها.

* * *

(١) انظر : الإسلام في عصر العولمة ص ٨٧ ـ د/ محمود زقزوق ، وانظر مجلة منبر الإسلام ص ٣٤ ـ ٣٨ ـ عدد ربيع الأول ١٤٢١ هـ ـ يونيو ٢٠٠٠م ـ تصدرها بوزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .
(٢) انظر كتاب (الإرهاب صناعة غير إسلامية ص / ١٢٠ ـ ١٢٥ ـ لمؤلفه : د/ نبيل لوقا بباوي ـ الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٢م ـ طبع ونشر وتوزيع مكتبات الأهرام ـ بالقاهرة .

الخـــــــاتمـــة

على الرغم من وضوح الحقائق الثابتة لدى كثير من العلماء والمنصفين عن عظمة الإسلام في تعاونه الصادق ، وتواصله مع سائر الحضارات عبر تاريخه المجيد ، وعلى الرغم من ظهور فضل العرب والمسلمين على الغرب المسيحي ، وانتشال أهله من وهدة التأخر ، والأخذ بأيديهم إلى سلم الحضارة والتقدم إلا أننا وجدنا الغربيين المتعصبين لا يزالون يحقدون على الإسلام والمسلمين حقدا شديدا ، وينظرون إليهم على أنهم أعداؤهم الألداء ، وليس هناك من سبب لذلك سوى مرض النفوس الذي يتغلغل في بواطنهم . هذا مع أنهم في نفس الوقت هم الذين لمسوا بأيديهم حسن معاملة المسلمين لهم حين فتحت بلاد الأندلس ، ولكنهم حينما كانت الكرة لهم بطشوا بالمسلمين أشد البطش ، ونكلوا بهم تنكيلا شديدا ، ويتمثل ذلك في معاملة الأسبان للمسلمين حين استردوا بلادهم منهم ، وكيف أنهم أجبروهم على التنصير ثم لما لم يقبلوا منهم ذلك قتلوهم.[1]

وفي الحروب الصليبية جرت الدماء أنهارا من المسلمين في حين أن المسلمين عندما استردوا القدس عاملوا هؤلاء القساة بأسمى مظاهر الرحمة والرأفة ، ولا يزال الأوربيون إلى وقتنا هذا ـ ينظرون إلى الإسلام على أنه عدوهم الأول ، ويصفونه بكل ما في جعبتهم من أوصاف الإرهاب والعنف والفظاظة ، والإسلام من كل هذه الافتراءات الظالمة برئ كبراءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب عليهما السلام .فهو دين الرحمة والرأفة والعدل والمساواة ، وليس في صفحات تاريخه سطر واحد يمكن أن يشوه نقاء هذه الصفحات البيضاء التي اتصف بها وازدهر .

ولقد أجمع المنصفون من المؤرخين على اختلاف معتقداتهم على : أن تسامح[2] العرب وعدلهم كان هو السبب في انتشار الدين الذي جاءوا يدعون الناس إليه وكان في امكان العرب أن تزدهيهم

(١) مجلة الأزهر ص ١٤٩٠ ـ ١٤٩١ ـ مقال للأستاذ / عبد الحفيظ فرغلي القرني ـ عدد شوال ١٤٢١هـ- يناير ٢٠٠١م ـ الجزء العاشر ـ السنة الثالثة والسبعون . يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، بتصرف .

(٢) راجع على سبيل المثال في هذا المجال كتاب : الدعوة إلى الإسلام ـ لتوماس أرنولد

نشوة النصر فيغفلون عن مبادئ دينهم فيسيئون إلى أهل البلاد المفتوحة (الأندلس) وقتئذ ـ ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، والدليل على صحة ما نقول هنا هو : أنهم (أي العرب المسلمون) لو أساءوا معاملة الناس وظلموا لتألب عليهم أهل هذه البلاد المفتوحة من أقصاها إلى أقصاها ، ولتمكنوا وهم كثرة من أن يطردوا العرب المسلمين وهم قلة ، ولكنهم استراحوا إلى حكمهم ، وأعجبوا بأخلاقهم، وأسرعوا إلى اعتناق دينهم (الإسلام) وتعلم لغتهم.[1]

وأود هنا في هذه الخاتمة أن أطرح هذه التساؤلات المهمة فأقول : ـ

إذا كان هذا هو واقع المسلمين وماضيهم التليد ـ فلماذا ينقم الغربيون على الإسلام بهذه الصورة الظالمة ؟ ولماذا يمالئون العدو الصهيوني على المسلمين ؟ وينحازون له مغمضين الطرف عن جرائمه المنكرة ، والتي لا تعد ولا تحصى ؟ ؟ ولماذا يمدونه بالعون المادي والمعنوي ، ويعضدونه بكل ما أوتوا من قوة ليمكنوه من السيطرة على البلاد التي احتلها بالغدر والكيد والعدوان حتى طغى وتجبر ، وها هي آثار بغيه في فلسطين ظاهرة واضحة ، وفي الحقيقة أننا لا نستطيع أن نجد جوابا جامعا عن كل هذه التساؤلات إلا في شئ واحد وهو التعصب ضد الإسلام ، والحقد الدفين المتوارث عبر العصور فالحق محارب دائما ، والباطل يباركه أهله دائما ، ومع ذلك فإذا كان أهل الباطل ينصرون باطلهم ، فإن ذلك إلى حين ، فللباطل صولة ثم يندثر ويندحر ، وعين الله ساهرة دائما لا تغفل عن نصرة الحق ودعاته مهما طال الأمد ، وسيأتي اليوم الذي تظهر فيه كلمة الله ، وتنقشع فيه سحب الضلال إلى الأبد إن شاء الله ، وإن غدا لناظره قريب . { وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون}[2].

* * *

(١) انظر مجلة الأزهر ص ١٤٩١ ـ مقال للأستاذ / عبد الحفيظ فرغلي القرني ـ بتصرف .

(٢) سورة الشعراء / ٢٢٧ .

أهم نتائج هذا البحث

من خلال المعالجة العلمية المتواضعة لموضوع هذا البحث أود أن أوضح بعض النتائج التي توصلت إليها وذلك على النحو التالي :

أولا : إن الحضارات الإنسانية ليست ملكا لأمة بعينها ، ولا هي وقف على جماعة من الناس . لأنها صرح هائل ساهمت كل أمة فيه بوضع لبنة في بنائه . وهذا يؤكد أن الحضارات سلسلة متصلة الحلقات تأخذ كل واحدة منها بعضد الأخرى، وقد ثبت لنا من خلال هذا البحث أن جميع الحضارات التي توصل إليها الإنسان عبر مراحل التاريخ استفادت من بعضها البعض وأفادت .

ثانيا : كذلك من أهم النتائج التي توصلت إليها : أن النقل الحضاري ليس في أصله عيبا مادام يتم في إطاره المنضبط الصحيح، وما دام لا يلغي ذاتية الأمة وثوابتها ، ولا يضر بخصائصها ومعالمها المستقلة . لأن الانفتاح صفة جوهرية لكل حضارة متألقة لا تصد بالتعصب ، ولا تتوقف بالجمود ، ولا تنطوي على نفسها.

ثالثا : أيضا من النتائج أن هذا النقل الذي لا تعاب به الحضارات ، لابد أن يساير تقاليد الأمة المنقول إليها ، ويتمشى مع آدابها ومثلها ، ويكون قائما على الاستيعاب الذكي المتوازن الذي يمتص العصارة الصالحة ويلفظ الأليف الضارة.[1]

رابعا : إن تقدم البشرية رهين التواصل والتفاعل بين الحضارات ، والجانب المادي لأية حضارة متمثلا في علوم البحث التجريبية من كيمياء وطبيعة وفلك ورياضة وطب وهندسة كل ذلك قابل للانتقال من حضارة لأخرى تبعا لإمكانية التواصل في هذا الجانب ، دون أن يكون له تأثير على الجانب المعنوي الذي يعتبر من الخصوصيات. [2]

وبعد :

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.والحمد لله رب العالمين .

* *

(١) انظر قيم حضارية في القرآن ج١/١٥٥ - ١٥٦ - للأستاذ / توفيق محمد سبع - بتصرف .

(٢) انظر التسامح في الحضارة الإسلامية ص / ١٢٦ - د/ صوفي أبو طالب - سلسلة قضايا إسلامية - عدد ربيع الآخر ١٤٢٥هـ - يونية ٢٠٠٤م - اصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف - القاهرة

أهم مراجع البحث

- القرآن الكريم

١- أضواء على الثقافة الإسلامية .د/ مصطفى أحمد أبو سمك - طبعة أولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

٢- أوربا والإسلام . للإمام الأكبر شيخ الأزهر الأسبق - الدكتور عبد الحليم محمود - طبعة ثالثة ١٩٨٦م - دار المعارف بالقاهرة.

٣- أثر العرب على الحضارة الأوربية - للأستاذ عباس محمود العقاد - طبعة ١٩٤٦م - دار المعارف للطباعة والنشر.

٤- أثر الحضارة الإسلامية في المجتمعات الإنسانية - د/ عبد القادر سيد عبد الرؤوف - طبعة أولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م - دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .

٥- الإسلام شريكا - (دراسات عن الإسلام والمسلمين) تأليف : فريتس شتيبات - ترجمة : د/ عبد الغفار مكاوي - ضمن سلسلة عالم المعرفة - الكتاب رقم ٣٠٢ - طبعة ٢٠٠٤م - الكويت .

٦- الإسلام وضرورة التغيير - د/ محمد عمارة - ضمن سلسلة كتاب مجلة العربي - العدد التاسع والعشرون - يوليو ١٩٩٧م.

٧- الإسلام وصراع الحضارات د/ أحمد القديدي - ضمن سلسلة كتاب الأمة . إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر - طبعة ١٩٩٥م .

٨- الإسلام والتيارات الوافدة - أنور الجندي - ضمن سلسلة قضايا إسلامية - طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

٩- الإسلام أثره وفضله على الإنسانية - أبو الحسن الندوي - طبعة أولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م - نشر دار الصحوة بالقاهرة.

١٠ــ الإسلام وقضايا الحوار ــ د/ محمود حمدي زقزوق ــ ترجمة : د/ مصطفي ماهر ــ إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف ــ طبعة ١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٢م ــ القاهرة .

١١ــ الإله في فكر البشر ووحي السماء ــ د/ عبد الغفار محمد عزيز ــ طبعة أولى ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م .

١٢ــ الإسلام والعولمة ــ د/ محمود زقزوق ــ طبعة ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م ــ من سلسلة قضايا إسلامية ــ إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف ــ القاهرة.

١٣ــ الإرهاب صناعة غير إسلامية ــ د/ نبيل لوقا بباوي ــ طبعة أولى ٢٠٠٢م ــ طبع ونشر وتوزيع مكتبات الأهرام بالقاهرة.

١٤ــ الإسلام من التعايش إلى التصادم ــ د/ هالة مصطفى ــ ضمن سلسلة مكتبة الأسرة ــ طبع ٢٠٠٢م ــ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.

١٥ــ تاريخ الدعوة ــ د/ جمعة الخولي ــ طبعة أولى ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م ــ دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .

١٦ــ التسامح في الحضارة الإسلامية ــ ضمن سلسلة قضايا إسلامية ــ بوزارة الأوقاف ــ طبعة ١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م .

١٧ــ التواصل الحضاري والحفاظ على الذاتية ــ د/ سعد الدين السيد صالح ــ طبعة أولى ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م ــ نشر دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة.

١٨ــ الجامع لأحكام القرآن ــ للإمام القرطبي ــ طبعة أولى ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م ــ دار الغد العربي بالقاهرة.

١٩ــ الجذور التاريخية والجسور الحضارية بين الإسلام والغرب ــ د/ محمد محمد ليلة ــ من سلسلة قضايا إسلامية ــ العدد رقم ٦٩ ــ عدد ذو القعدة ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠١م ــ وزارة الأوقاف.

٢٠ــ الحضارة الإسلامية وضرورتها للحضارة الغربية ــ د/ أحمد شلبي ــ قضايا إسلامية ــ إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف ــ طبعة ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م.

٢١ــ حضارة العرب ــ جوستاف لوبون ــ ترجمة : عادل زعيتر ــ طبعة ثالثة ١٩٥٦م ــ طبع عيسى البابي الحلبي بالقاهرة

٢٢ــ الخصائص العامة للإسلام ــ د/ يوسف القرضاوي ــ طبعة رابعة ١٩٨٩م ــ مكتبة وهبة بالقاهرة .

٢٣ــ فلسفة الحضارة ــ تأليف : البرت شيفستر ــ طبعة وزارة الثقافة .

٢٤ــ الحضارة الغربية الفكرة والتاريخ ــ تأليف : توماس باترسون ــ ترجمة : شوقي جلال ــ مكتبة الأسرة ــ طبعة ٢٠٠٤م بالقاهرة .

٢٥ــ الحوار .. الذات والآخر ــ د/ عبد الستار الهيتي ــ من سلسلة الدورية لوزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر ــ عدد رقم ٩٩ المحرم ١٤٢٥هـ ــ مارس ٢٠٠٤م .

٢٦ــ في فقه العلم والحضارة ــ د/ أحمد فؤاد باشا ــ من سلسلة قضايا إسلامية ــ العدد رقم ١٠٣ ــ سنة ١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٣م ــ وزارة الأوقاف بالقاهرة .

٢٧ــ قيم حضارية في القرآن ــ د/ توفيق محمد سبع ــ طبعة ثانية ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م ــ نشر دار المنار بالقاهرة.

٢٨ــ قصة الحضارة ــ ول ديورانت ــ ترجمة : د/ زكي نجيب محمود ، ومحمد بدران ــ الجزء الأول ــ طبعة رابعة ١٩٧٣م .

٢٩ــ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ــ لابن رشد ــ المكتبة المحمودية التجارية ــ طبعة ١٩٦٨م بالقاهرة

٣٠ــ كيف نتعامل مع القرآن ــ الشيخ محمد الغزالي ــ من سلسلة قضايا الفكر الإسلامي ــ طبعة أولى ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م ــ دار الوفاء للطبع والنشر والتوزيع بالمنصورة .

٣١ـ دعوة الرسل ـ الجزء الأول د/ بكر زكي عوض ـ طبعة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م بالقاهرة ٠

٣٢ـ مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام ـ للأستاذ أنور الجندي ـ العدد رقم ٥١ من سلسلة البحوث الإسلامية بالأزهر ـ طبعة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م ٠

٣٣ـ المعجم الوجيز ـ إصدار مجمع اللغة العربية ـ طبعة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م٠

٣٤ـ المفردات في غريب القرآن ـ للراغب الأصفهاني ـ إعداد : د/ محمد أحمد خلف الله ـ نشر مكتبة الأنجلو المصرية٠

٣٥ـ من روائع حضارتنا ـ د/ مصطفى السباعي ـ طبعة أولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م ـ طبع ونشر وتوزيع مكتبة دار السلام بالقاهرة٠

٣٦ـ المسلمون والعولمة ـ د/ يوسف القرضاوي ـ طبعة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م ـ دار النشر والتوزيع الإسلامية بالقاهرة ٠

٣٧ـ المستقبل لهذا الدين ـ للأستاذ سيد قطب ـ الطبعة الثانية عشرة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ـ دار الشروق ٠

٣٨ـ لسان العرب ـ لابن منظور ـ طبعة دار المعارف٠

٣٩ـ لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ـ شكيب أرسلان ـ طبعة ١٩٨٥م ـ دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة ٠

٤٠ـ المقدمة ـ لابن خلدون ٠

٤١ـ نحن والحضارة والشهود ـ الجزء الأول ـ د/ نعمان عبد الرزاق السامرائي ـ سلسلة دورية تصدر عن وزارة الأوقاف بدولة قطر ـ العدد رقم ٨٠ ـ سنة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م ٠

٤٢ـ هموم الأمة الإسلامية ـ د/ محمود حمدي زقزوق ـ مكتبة الأسرة ـ طبعة ٢٠٠١م ـ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠

٤٣ـ مجلة الأزهر ـ يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة٠

٤٤ـ مجلة منبر الإسلام ـ يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف ٠

٤٥ـ صحيفة الأهرام المصرية ٠ بتاريخ ٢١ ، ٢٨ من أغسطس ٢٠٠٤م ٠

وبالله التوفيق ،

* * *

دكتور

محمد عبد العزيز محمد عوض

الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية أصول الدين القاهرة- جمعة الأزهر

تحريرا في : / / ٢٠٠٥م

محتويات البحث

الموضوع رقم الصفحة

المقدمة
التمهيد : الحضارة بين اللغة والاصطلاح
أولا : معنى الحضارة في اللغة.
ثانيا : الحضارة في الاصطلاح.
أ ـ الحضارة في الاصطلاح العام
ب ـ الحضارة في الاصطلاح الإسلامي
المبحث الأول : التأريخ الإسلامي للحضارات المادية
١ـ حضارة قوم نوح عليه السلام
٢ـ حضارة قوم هود عليه السلام
٣ـ حضارة قوم صالح عليه السلام
المبحث الثاني : خصائص الحضارة الإسلامية
١ـ خاصية الإنسانية والعالمية
٢ـ خاصية الأصالة
٣ـ خاصية الانفتاح والاقتباس المنضبط
المبحث الثالث : الإسلام والتواصل الحضاري
الضوابط الإسلامية للتواصل الحضاري
ـ كيف يتم التواصل الحضاري
ـ المسلمون والتواصل الحضاري
المبحث الرابع : الإسلام وصراع الحضارات

ـ صراع الحضارات في ميزان الإسلام
ـ هل صدام الحضارات ضرورة ؟أو هو أمر محتمل؟
ـ سنة التدافع لا الصراع
المبحث الخامس : المنصفون وموقفهم من صراع الحضارات
الخاتمـــة : أهم النتائج للبحث
أهم مراجع البحث
محتويات البحث